طريقنا للقلوب

٣٥ وسيلة لكسب قلوب الناس

الطبعة الثالثة منقحة ومزيدة

تقديم العلامة

محمد بن إسماعيل العمراني

تأليف

أبي عبد الله فيصل بن عبده قائد الحاشدي



دار الإيمان

للطبع والنشر والتوزيع

اسكندرية ٥٤٥٧٧٦٩



طريقنا للقلوب

بسم الله الرحمن الرحيم





دار الإيمان
للطبع والنشر والتوزيع
١٧ شارع خليل الخياط - مصطفى كامل - إسكندرية
تليفون وفاكس: ٥٤٥٧٧٦٩ ت: ٥٤٤٦٤٩٦

مقدمة شيخ علماء اليمن القاضي الفقيه

محمد بن إسماعيل العمراني [1]

الحمد لله ربّ العالمين، والصلاة والسلام على سيّد الأنبياء والمرسلين، وعلى آله الطّيّبين الطاهرين، وعلى أصحابه الغُرّ الميامين .

وبَعْدُ ، فهذا الكتاب الّذىَ أُقدّم للقُرّاء بعُنوان :

طريقنا للقلوب

هو اسمٌ على مسمًّى، وحقيقته أنه من أعظم الطرق إلى قلوب المؤمنين .

فللّه درُّ مؤلّفه، وجزاه الله خيراً،كيف لا يكون من أعظم الطُّرق وأوضحها ومؤلّفُهُ هو الشابُّ الفاضل العالم التقيُّ [2] ؟!.

الذي نشأ في طاعة الله علْماً وعملاً ونشاطاً، ألا وهو ولدي (أبو عبد الله فيصل بن عبده قائد الحاشديُّ) حفظه الله ورعاه، وزاد في الشباب الصالحين من أمثاله :

آمينَ آمينَ لا أرضى بواحدةٍ ... حتّى يُضافَ إليها ألْفُ آمينا

وسبحان الله وبحمده، وسبحان الله العظيم .

محمد بن إسماعيل العمراني

---

(١) هو حفيد شيخ الإسلام الشوكانيّ بالتلمذة، والمفتي في إذاعة صنعاء .

(٢) هذا من حسن ظنّ الشيخ بي ، فجزاه الله خيراً على حسن ظنّه ، وأسأل الله أن يوصلنا إلى هذه المنزله بمنّه وكرمه آمين.

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله ، نَحْمَدُهُ ، ونستعينه ، ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيِّئات أعمالنا ، مَنْ يهد اللهُ فلا مُضلَّ له ، ومَنْ يُضْلِلْ فلا هاديَ له، وأشهد أن لا إلهَ إلا اللهُ وَحْدَهُ لا شريكَ له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

وَبَعْدُ ، فهذه رسالةٌ بعُنوان « **طريقنا للقلوب** » ، أودعتُ فيها بعض الوسائل المفيدة ، والصفات الحميدة ، والخلال المجيدة ، التي تُعين على اكتساب القلوب ، واستجلاب المحبَّة والمودَّة ، فالقلوب لا يُسلس قيادها إلاَّ مَنْ يحسن التعامل معها ؛ فهي كالزُّجاجة، فَرُبَّ كلمة جارحة لا يتأمَّلُها صاحبها تكون سبباً في كسرها ، فلا تعود صافيةً عن الحِقْدِ والبُغْضِ ، كما كانت صافيةً قبلَ ذلك إلا أن يشاء الله . ولله دَرُّ القائل :

«وَاحْرِصْ عَلَى حِفْظِ القُلُوبِ مِنَ الأَذَى ... فَرُجُوعُهَا بَعْدَ التَّنَافُرِ يَصْعُبُ
إِنَّ القُلُوبَ إِذَا تَنَافَرَ وُدُّهَا ... شِبْهُ الزُّجَاجَةِ كَسْرُهَا لا يُشْعَبُ»

وقد حاولت في هذه الرسالة أن أعتمد على المنهج الأصيل المتمثِّل بكتاب الله ، وبسنَّة رسول الله ـ ﷺ ـ الصَّحيحة ، والآثار السَّلفية الثابتة.

ورجوتُ أن يستفيد منها إخواني الذين أحببتهم في الله قبلَ غيرهم.

« وَمِنْ عَجَبٍ أَنِّي أَحِنُّ إِلَيْهِمُو ... فَأَسْأَلُ عَنْهُمْ مَنْ لَقِيتُ ، وَهُمْ مَعِي
وَتَطْلُبُهُمْ عَيْنِي ، وَهُمْ فِي سَوَادِهَا ... وَيَشْتَاقُهُمْ قَلْبِي، وَهُمْ بَيْنَ أَضْلُعِي! » .

ولم أقصد بهذه الرسالة أحداً ، بل هي لكُلِّ مَنْ أراد أن يسلك أقصر طريقٍ إلى القلوب .

«تعَالَوْا تعَالَوْا نَكْتُب الحُبَّ مُوثَقاً — بدَمْع غزيرٍ ، يَغْسِلُ الحُوبَ والذَّنْبَا
تَعَالَوْا نُعِيدُ العَهْدَ بيْنَ قُلُوبِنَا — أَتَيْنَاكُمْ طَوْعَاً نُبَادِلُكُمْ حُبَّا » .

وأسأل الله أن يجعلَها طريقةً حسنةً إلى قلوب الناس ، وأن ينفعني بها ، ووالديَّ، وإخواني المسلمين ، وأن يجعلَ هذا عملاً خالصاً مُتقبَّلاً ، وآخر دعوانا أنِ الحمدُ للهِ ربِّ العالمين .

أبو عبد الله
فيصل بن عبده قائد الحاشدي

إفشاء السلام

السَّلام: معناه التَّعويذ بالله، والتَّحصين به؛ فإنَّ السَّلام اسمٌ له ـ سبحانه ـ، تقديره : الله عليك حفيظٌ وكفيلٌ ، كما يُقال : الله معك ، أي بالحفظ ، والمعونة ، واللُّطف [١].

فعن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ أنَّ النَّبيَّ ـ ﷺ ـ قال: «**السَّلامُ اسْمٌ من أَسْمَاءِ الله، وَضَعَهُ اللهُ في الأَرْضِ ، فَأَفْشُوهُ بينَكُمْ، فإنَّ الرَّجُلَ المُسْلمَ إذا مَرَّ بقومٍ ، فَسَلَّمَ عليهم ، كانَ لَهُ عَلَيْهِمْ فَضْلُ دَرَجَةٍ بتذكيرِهِ إيَّاهُمُ السَّلامَ، فَإِنْ لَمْ يَرُدُّوا عَلَيْهِ ، رَدَّ عليهِ مَنْ هو خيرٌ منهم وأطْيَبُ** » [٢].

وقيل : معناه السَّلامةُ (أي سلامة الله ملازمةٌ لك) ، والأمانُ التَّامُّ من الغَدْرِ ، والخيانة ، والغشِّ .

والإفشاء لُغَةً : الإظهارُ ، والإشاعةُ ، والنَّشْرُ .

حكمُ السَّلام :

وإفشاء السَّلام سُنَّةٌ مؤكَّدةٌ ، وحقٌّ من حقوق المسلم على أخيه المسلم؛ فعن أبي هريرةَ ـ رضي الله عنه ـ قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ:

« **حَقُّ المسلمِ عَلَى المسلمِ ستٌّ : إذا لَقِيْتَهُ فَسَلِّمْ عليهِ ، وإذا دَعَاكَ فَأَجِبْهُ، وإذا اسْتَنْصَحَكَ فَانْصَحْ لَهُ ، وإذا عَطَسَ فَحَمِدَ اللهَ فَشَمِّتْهُ ، وإذا مَرِضَ فَعُدْهُ ، وإذا مَاتَ فَاتَّبِعْهُ** » [٣].

---

(١) « صفة صلاة النَّبيِّ ـ ﷺ ـ » للألبانيِّ ، حاشية (ص١٤٢) رقم (٧).

(٢) رواه الطَّبَرَانيُّ في « الكبير » ، والبزَّار في « المسند » ، والبيهقيُّ في « الشُّعب» ، وصحَّحه الألبانيُّ في « صحيح الجامع » (٣٦٩٧) ، وفي « الصَّحيحة » (١٨٩٤).

(٣) رواه مسلم في السَّلام (٢١٦٢).

وكما يكون السَّلام عند اللِّقاء، يكون عند الفراقِ، فعن أبي هريرةَ ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ:

« **إذا انْتَهى أحَدُكُمْ إلى المَجْلسِ فَلْيُسلِّمْ ، فإذا أراد أَنْ يقُومَ فَلْيُسلِّمْ، فليستِ الأولَى بأَحَقَّ مِنَ الآخِرَة** » [1].

ويكون أيضاً بظَهْرِ الغَيْب : كأن ترسل إلى أخيك برسولٍ يعرفه ؛ ليحملَ إليه سلامَكَ ، أو تبعثَ له بالسَّلام عبْرَ رسالة ، أو تتَّصل به هاتفيّاً للسَّلام عليه، وليتخلَّلْ ذلك السُّؤال عن حاله ، وحالِ مَنْ يعزُّ عليه مع التَّواصي بالحقِّ والصَبر؛ فإنَّ ذلك أدْعَى لبقاء المودَّة ، وتوثيق عُرَا الأُخُوَّة بينكما ، فعن عائشةَ ـ رضي الله عنها ـ قالتْ : قال لي رسولُ الله ـ ﷺ ـ:

« **يا عَائشُ ، هذا جِبْرِيْلُ يُقْرِئُك السَّلامَ** » . قالتْ : قلتُ : « وعليه السَّلامُ ، ورحمةُ الله ، وبركاتُه » [2].

وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ عن النَّبيِّ ـ ﷺ ـ أنَّه قال :

« **إنِّي لأَرْجُو – إنْ طَالَ بي عُمرٌ – أنْ أَلْقَى عِيْسَى بْنَ مَرْيَمَ** ـ عليه السلام ـ، **فمَنْ لَقِيَهُ منكم ، فَلْيُقْرِئْهُ مِنِّي السَّلامَ** » [3] .

وفيما سبق يقول الشاعر :

« جُدْ لَنَا بالسَّلامِ إنْ لَمْ تَزُرْنَا ... إنَّ بَذْلَ السَّلامِ نصْفُ الزِّيَارَهْ
واكْتُبِ الحُبَّ بالدُّمُوعِ لِيَبْقَى ... لِلمُحِبِّيْنَ شَامَةً وَإِشَارَهْ» .

---

(١) رواه أبو دواود في الأدب (٥٢٠٨) ، والتِّرمذيُّ في الاستئذان (٢٧٠٦) وحسَّنه ، وصحَّحه الألبانيُّ في « صحيح الجامع » (٤٠٠) ، وفي « الصَّحيحة » (١٨٣) .

(٢) رواه البخاريُّ في الاستئذان (٦٢٤٩) و(٦٢٥٣) ، ومسلم في فضائل الصَّحابة (٢٤٤٧) .

(٣) رواه أحمد في « المسند» (٢/٢٩٨) بإسنادٍ صحيح .

وقال آخر:

« سَلامٌ عَلَيْكُمْ ، والدِّيارُ بَعيدَةٌ وإنِّي عَنِ المَسْعَى إِلَيْكُمْ لعَاجِزُ
وهذا كتابي نائباً عَنْ زيارتي وفي عدمِ الماءِ التَّيَمُّمُ جَائزُ » .

وللسَّلام بظَهْرِ الغيب فَضْلٌ عظيمٌ ، يعود على المُسَلِّم والمُسَلَّم عليه ؛ لأنَّ السَّلام ـ كما عرَفْنا من تعريفه سَلَفاً ـ دعاءٌ ، وقد ثَبَتَ في الصَّحيح من حديث أبي الدَّرْدَاء ـ رضي الله عنه ـ أنَّ النَّبيَّ ـ ﷺ ـ قال :

« **دُعَاءُ المرءِ الـمُسْلِمِ مُسْتَجَابٌ لأخيه بظَهْرِ الغَيْبِ ؛ عِنْدَ رأسه مَلَكٌ مُوَكَّلٌ بِهِ ، كُلَّمَا دَعَا لأخيه بخيرٍ ، قالَ المَلَكُ : آمينَ ، ولك بِمِثْلِ ذلك** »[١].

أَيْ أخي – رعاك الله – ، إنْ أردت ألاَّ تكونَ أَبْخَلَ النَّاس وأَعْجزَهُمْ، فجدْ بالسَّلامِ ، فعن أبي هُرَيْرَةَ – رضي الله عنه – قال: قال رسول الله – ﷺ –: «**إنَّ أَبْخَلَ النَّاسِ مَنْ بَخِلَ بالسَّلام ، وَأَعْجزَ النَّاسِ مَنْ عَجزَ عَنِ الدُّعاء**»[٢].

وإذا كان البَدْءُ بالسَّلام سُنَّةً مُسْتَحَبَّةً على الكفَاية، فإنَّ رَدَّهُ فَرْضُ عَيْنٍ في حَقِّ الواحد؛ لأنَّ الله – جلَّ وعلا – يقول:

﴿ **وإذا حُيِّيتُمْ بتَحيَّةٍ فَحَيُّوا بأَحْسَنَ منْهَا أَوْ رُدُّوهَا** ﴾ [النساء : ٨٦] .

فإن كان المسلَّمُ عليهم جماعةً، فردُّ السَّلام في حقِّهم فَرْضُ كفَايةٍ، إنْ رَدَّهُ واحدٌ منهم – وإنْ كان الأَفْضَلُ أنْ يَرُدُّوا جميعًا – سقطَ الحرَجُ عَنِ الباقين، وإن تركوا رَدَّهُ كلُّهُمْ أَثِمُوا كُلُّهُمْ؛ فعنْ عليٍّ – رضي الله عنه – عن النَّبيِّ – ﷺ – قال:

« **يُجْزِئُ عَنِ الجماعةِ إذا مرُّوا أنْ يُسَلِّمَ أَحَدُهُمْ ، ويُجْزِئُ عَنِ الجُلُوسِ**

(١) رواه مسلم في الذّكر والدُّعاء (٢٧٣٣).

(٢) رواه ابن حبَّانَ في « الصَّحيح » ، والطَّبَرَانيُّ في « الأوسط» ، والبيهقيُّ في « الشُّعب » ، وأبو يَعْلَى في « المسند » ، وصحَّحه الألبانيُّ في « صحيح الجامع » (١٥١٩)، وفي « الصَّحيحة » (٦٠١).

أَنْ يَرُدَّ أَحَدُهُمْ » (١).

وإذا تلاقى رَجُلان، فسلَّمَ كُلُّ واحدٍ منهما على صاحبه دُفْعَةً واحدةً، صار كُلٌّ منهما مُبْتدئًا بالسَّلام؛ فيجب على كُلِّ واحد منهما أنْ يَرُدَّ على صاحبه، هذا ويُشترط في الجوابِ أنْ يكونَ على الفَوْرِ ، فإنْ أخَّرَه، ثُمَّ رَدَّ، لَم يُعَدَّ جوابًا، وكان آثمًا بتركِ الرَّدِّ.

ويُستحبُّ لمن أُرْسِلَ إليه سلامٌ أن يَرُدَّ على المُبَلِّغ - أيضًا -، فيقول: وعليك وعليه السَّلام ... فعن غالب القطَّان قال: إنَّا لجُلُوسٌ بباب الحَسَنِ، إذ جاء رجلٌ فقال: حدَّثَني أبي عن جدِّي قال: بعثني أبي إلى رسول الله -ﷺ-: فقال: «ائْته، فَأَقْرِئْهُ السَّلامَ» .قال: فَأَتَيْتُهُ ، فقلتُ: «إنَّ أبي يُقْرِئُكَ السَّلامَ». فقال : « وَعَلَيكَ وعلى أَبِيْكَ السَّلامُ » (٢) .

والآية الآنفة الذِّكر تدلُّ على أنَّ ردَّ التحيَّة بمِثْلِها واجبٌ ، والزِّيادة سنَّةٌ مستحبَّةٌ ، فمن سلَّم عليكَ ، فقال : السَّلامُ عليكم ، فَرُدَّ عليه بمثلِ سلامه، فقلْ: وعليكمُ السَّلامُ، وإنْ زدتَ الرَّحمةَ والبَرَكَةَ، فهو أفضل؛ حتَّى تَغْنَمَ من الأجر ثلاثينَ حَسَنَةً، فعن عِمْرَانَ بن حُصَيْنٍ - ﷺ - قال: جاء رجلٌ إلى النَّبيِّ - ﷺ - فقال: « السَّلامُ عَلَيْكُمْ » . فَرَدَّ عليه السَّلامَ، ثمَّ جَلَسَ، فقال النَّبيُّ - ﷺ -: « **عَشْرٌ** » . ثمَّ جاء آخرُ، فقال: « السَّلامُ عليكم، ورحمةُ الله» . فردَّ عليه، فجلس، فقال: « **عِشْرُوْنَ** » . ثم جاء آخرُ، فقال: « السَّلامُ عليكم، ورحمةُ اللهِ، وبَرَكَاتُهُ » . فردَّ عليه ، فجلس ، فقال : « **ثلاثون** » (٣).

---

(١) رواه أبو داود في الأدب (٥٢١٠) ، وصحَّحه الألبانيُّ في « صحيح الجامع » (٨٠٢٣) ، وفي «الصَّحيحة » (١١٤٨) و (١٤١٢).

(٢) رواه أبو داود في الأدب (٥٢٣١).

(٣) رواه أبو داود في الأدب (٥١٩٥) ، والتِّرمذيُّ في الاستئذان (٢٦٨٩) ، وحسَّنه ووافقه الألبانيُّ ، وانظر « صحيح الكلم الطَّيِّب » (١٥٦) .

ولا يَكْفي في رَدِّك السَّلامَ أن تقولَ : أَهْلاً وسَهْلاً فقط ؛ لأنَّها تحيَّةٌ ليست أحسنَ منه ولا مثْلَهُ ، ومَنْ حيَّاك بقوله : أَهْلاً ، فَرُدَّ عليه بمِثْلِ تحيَّتِهِ ، وإن زِدْتَ عليها ، فهو أفضل .

على أنَّ تحيَّةَ المسلمين الحُسْنَى هي السَّلام ؛ فهو تحيَّةُ أهلِ الجنَّة ، قال اللهُ – تعالى – : ﴿ تَحيَّتُهُمْ يومَ يَلْقَوْنَه سَلامٌ ﴾ [الأحزاب : ٤٤].

وعن أبي هريرة – رضي الله عنه – عن النَّبيِّ – ﷺ – قال :

« **لَمَّا خَلَقَ اللهُ آدَمَ – ﷺ – قالَ: اذهبْ فَسَلِّمْ على أُولَئكَ – نَفَرٍ منَ الملائكة جُلُوس – فاسْتَمعْ ما يُحَيُّونَكَ؛ فَإنَّها تَحيَّتُكَ، وتَحيَّةُ ذُرِّيَّتِكَ، فقال: السَّلامُ عليكم، فقالوا: السَّلامُ عليكَ، ورحمةُ الله. فزَادُوهُ: ورحمةَ الله** »[1].

أمَّا التَّحيَّة بـ(صباحِ الخير ، ومساءِ الخير) ، ونَحْوِ ذلك فتلك عادةٌ مستوردةٌ، شبيهةٌ بتحيَّة الجاهليَّة (عِمْ صباحًا، وعِمْ مساءً).

« صَبَّحْتُهُ عِنْدَ المَسَاء ، فَقَالَ لي : مَاذَا الصَّبَاحُ ؟! ، وَظَنَّ ذَاكَ مِزَاحَا
فَأَجَبْتُهُ: إِشْرَاقُ وَجْهِكَ غَرَّني حَتَّى تَبَيَّنْتُ المَسَاءَ صَبَاحَا».

فَضلُ السَّلام وفَوائدُهُ :

من فضله وفوائده ما يأتي:

١- من أعظم فوائده امتثالُ أمرِ الله – سبحانه –؛ لأنَّه غايةُ سعادة الإنسان في مَعَاشه ومَعَاده ، قال الحقُّ – تبارك وتعالى –:

﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى**

(١) رواه البخاريُّ في الاستئذان (٦٢٢٧) ، ومسلمٌ في الجنَّة وصفة نعيمها (٢٨٤١)

تَسْتَأْنِسُوا [١] وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا [٢] ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ .

[النُّور : ٢٧]

وقال – سبحانه وتعالى – :

﴿ فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً ﴾

[النُّور : ٦١]

٢- إفشاءُ اسمِ الله – تعالى – بين الناس، وإحياءٌ لسُنَّة نبيِّنا محمَّدٍ – ﷺ –.

٣- أنَّه من صفات الملائكة المُقَرَّبين ، وأولياء الله المتَّقين ، قال الله – تبارك وتعالى – : **﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴾** [الذَّاريات : ٢٤–٢٥] .

٤- أنَّه من أسباب تآلف المسلمين ، ونشر المحبَّة والمودَّة بينهم ، وزوال الشَّحْناءِ والتباغُضِ عن قلوبهم ، فهو مفتاحٌ – مؤكَّدُ النَّتيجةِ – لفتح كثيرٍ من القلوب.

وإذا كان السَّلامُ طريقَ المحبَّة ، فالمحبَّةُ طريقُ الإيمان، والإيمانُ طريقُ الجنَّةِ، فعن أبي هريرة – رضي الله عنه – قال : قال رسول الله – ﷺ – :

« والَّذي نَفْسي بيَده ، لا تَدْخُلُونَ الجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمِنُوا ، وَلاَ تُؤْمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا ، أَوَلا أَدُلُّكُمْ عَلَى شَيْءٍ إذا فَعَلْتُمُوهُ تَحَابَبْتُمْ ؟ ، أَفْشُوا السَّلامَ بَيْنَكُمْ » [٣].

---

(١) **تستأنوا** : تستأذنوا ، سُمِّيَ الاستئذانُ استئناساً ؛ لأنَّ به يحصلُ الاستئناسُ ، وبعدمه يحصل الاستيحاشُ ، ففي الآية مَجاز مرْسَلٌ علاقته السَّبَبِيَّةُ، فما أروعَ بلاغةَ القرآنِ الكريمِ ! .

(٢) صفة ذلك – كما جاء في الحديث – « السَّلاَمُ عليكمْ ، أأدْخلُ ؟».

(٣) رواه مسلم في الإيمان (٥٤).

٥- أنّه من الأمور التي يُستكمَلُ بها الإيمان، فعن عمّارِ بنِ ياسرٍ - رضي الله عنه - قال :

« ثلاثٌ مَنْ جمعَهُنَّ فقدْ جمعَ الإيمانَ : الإنصافُ مِنْ نفْسِكَ ، وبَذْلُ السَّلامِ للْعَالَمِ ، والإنفاقُ مِنَ الإقْتَارِ» [١].

٦- أنّه من أسباب حصول البركة على المُسَلِّمِ والمُسَلَّمِ عليه ، فعن أنسٍ - رضي الله عنه - قال : قال لي رسول الله - صلى الله عليه وسلم - :

« يا بُنَيَّ ، إذا دَخَلْتَ عَلَى أَهْلِكَ فَسَلِّمْ ، يَكُنْ بَرَكَةً عليكَ ، وعلى أهلِ بيْتِكَ » [٢].

٧- أنَّ فيه إغاظةً لليهودِ المغضوبِ عليهم ، فعن عائشةَ - رضي الله عنها - عن النَّبيِّ - صلى الله عليه وسلم - قال :

«ما حَسَدَتْكُمُ اليَهُودُ عَلَى شَيْءٍ، مَا حَسَدَتْكُمْ عَلَى السَّلامِ والتَّأْمِينِ» [٣].

٨- أنّه من أسباب دخول الجنَّة، فعن أبي يُوْسُفَ عبدِ اللهِ بْنِ سَلَامٍ - رضي الله عنه - قال: سمعتُ رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول :

« يَأَيُّهَا النَّاسُ ، أَفْشُوا السَّلامَ ، وأَطْعِمُوا الطَّعَامَ ، وَصِلُوا الأَرْحَامَ ، وَصَلُّوا باللَّيلِ والنَّاسُ نِيَامٌ - تَدْخُلُوا الجَنَّةَ بِسَلامٍ » [٤].

---

(١) رواه البخاريُّ في كتاب الإيمان ، باب : إفشاء السَّلامِ ، وانظر «صحيح الكلم الطَّيِّب » (١٥٥).

(٢) رواه التِّرمذيُّ في الاستئذان (٢٦٩٨) ، وقال: «حسن صحيح» ، وقال الألبانيُّ في «المشكاة»: «حسن بطرقه» . وانظر «صحيح الكلم الطَّيِّب » (٤٧) .

(٣) رواه ابن ماجة في إقامة الصَّلوات (٨٥٦) ، وصحَّحه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (٥٦١٣) .

(٤) رواه التِّرمذيُّ في صفة القيامة (٢٤٨٥) وصحَّحه ، وابن ماجة في إقامة الصَّلوات (١٣٣٤) ، وفي الأطعمة (٣٢٥١) ، وصحَّحه الألبانيُّ في «صحيح الجامع » (٧٨٦٥) ، وفي « الصَّحيحه » (٥٦٩) .

آداب السّلام

من آدابه ما يأتي :

١- أنْ يُسَلِّمَ الصَّغيرُ على الكبيرِ توقيراً وتواضعاً له ، والمارُّ على القاعد ، والرَّاكبُ على الماشي ، والقليلُ على الكثير لفضيلة الجماعة ، فعن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - :

« **يُسَلِّمُ الصَّغيرُ عَلَى الكبيرِ ، والمارُّ عَلَى القَاعدِ ، والقليلُ عَلَى الكثيرِ** » [١].

وفي روايةٍ أخرى : « **يُسَلِّمُ الرَّاكبُ عَلَى المَاشِي** » [٢].

ولكن إذا لم يَقُمْ بالسُّنَّة مَنْ هو أولى بها ، فَلْيَقُمْ بها الآخرُ ؛ لئلاَّ يضيعَ السَّلامُ ، وليحوزَ الأجرَ ، فعن أنسٍ - رضي الله عنه - أنَّه مَرَّ بصبيانٍ ، فسلَّم عليهم، وقال: « كان رسولُ الله - صلى الله عليه وسلم - يَفْعَلُهُ » [٣] .

٢- أن يأتيَ المسلِّمُ بضميرِ الجَمْعِ ، وإن كان المسلَّمُ عليه واحداً ؛ ليتناولَهُ السَّلامُ وملائكتَهُ ، ويجزيه السَّلامُ عليك ، أو سلامٌ عليك بالإفراد ، والتَّنكير ، ويأتي المجيبُ بواوِ العَطْفِ في قوله : وعليكم ...

٣- أنْ يكونَ بلفظٍ مُسْمِعٍ للمسلَّمِ عليه ، فإنْ لم يَسْمَعْهُ ، لم يكنِ المسلِّمُ آتياً بالسُّنَّة ، ففي حديث ابْنِ عُمَرَ: « **إذا سَلَّمْتَ فَأَسْمِعْ ؛ فإنَّها تحيَّةٌ مِنْ عِنْدِ الله** » [٤] .

---

(١) رواه البخاريُّ في الاستئذان (٦٢٣١) و (٦٢٣٤).
(٢) رواه البخاريُّ في الاستئذان (٦٢٣٢) و (٦٢٣٣) ، ومسلمٌ في السَّلام (٢١٦٠).
(٣) رواه البخاريُّ في الاستئذان (٦٢٤٧)، ومسلمٌ في السَّلام (٢١٦٨).
(٤) أخرجه البخاريُّ في « الأدب المفرد » بسندٍ صحيحٍ .

وإذا دخلتَ مكاناً فيه أيقاظٌ ونيامٌ ، فسلِّمْ تسليماً يُسْمِعُ اليَقْظَانَ، ولا يُوقظُ النَّائمَ ، فعن المِقْداد بن الأَسْود قال :

« كانَ رسولُ الله - ﷺ - يَجيءُ مِنَ اللَّيلِ ، فَيُسَلِّمُ تَسْليماً لا يُوْقظُ نائماً، ويُسْمِعُ اليَقْظَانَ ، فإنْ لَقِيَ جماعةً يُسَلِّمُ عليهم جميعاً ، ويَكْرَهُ أَنْ يَخُصَّ أَحَدَهُمْ بالسَّلامِ ؛ لأَنَّهُ يُوَلِّدُ الوَحْشَةَ » (١) .

٤- المُصَافَحَةُ عند اللِّقاء بشدِّ الكَفِّ على الكَفِّ ؛ فلها فضلٌ عظيمٌ ، صَوَّرَهُ النَّبيُّ - ﷺ - بقوله :

« **إنَّ المؤمنَ إذا لَقِيَ المؤمنَ ، فَسلَّمَ عليه ، وأَخذ بيَده ، فَصافَحهُ - تَنَاثَرتْ خطَايَاهُمَا ، كما يتَنَاثَرُ ورَقُ الشَّجَرِ** » (٢) .

٥- الإقبال على المسلِّم بوَجْهٍ باشٍّ طَلْقٍ ، يذوبُ رِقَّةً وخُلُقاً ؛ فذلك ردُّ التَّحيَّة بأحسنَ منها .

٦- عَدَمُ تخصيصِ مَنْ يُعْرَفُ بالسَّلام ، بل يُلْقَى السَّلامُ على مَنْ يُعْرَفُ ، ومَنْ لا يُعْرَفُ ، فعن عبد الله بن عَمْرٍو - رضي الله عنهما - أنَّ رجلاً سأل رسولَ الله - ﷺ -: « أَيُّ الإسلامِ خَيْرٌ ؟ » . قال :

« **تُطْعِمُ الطَّعَامَ ، وتَقْرأُ السَّلامَ عَلَى مَنْ عَرَفْتَ ، ومَنْ لَمْ تَعْرِفْ** » (٣) .

٧- البَدْءُ بالسَّلام قَبْلَ الكلام ، فعن ابن عُمَرَ - رضي الله عنهما - أنَّ النَّبيَّ - ﷺ - قال: «**مَنْ بَدَأَ بالكلامِ قَبْلَ السَّلامِ ، فَلاَ تُجِيبُوْهُ** » (٤).

---

(١) رواه مسلمٌ في الأشْرِبَة (٢٠٥٥) .

(٢) ذكره المنذريُّ في « التَرغيب والتَّرهيب »، وقال : « لاأَعْلَمُ في رُوَاته مَجْرُوحاً » .

(٣) رواه البخاريُّ في الإيمان (١٢ ، ٢٨) ، وفي الاستئذان (٦٢٣٦) ، ومسلم في الإيمان (٣٩) .

(٤) رواه الطَّبَرَانيُّ في « الأوسط» ، وأبو نعَيم في « الحلية » ، وحسَّنه الألبانيُّ في « صحيح الجامع » (٦١٢٢) ، وفي « الصَّحيحة » (٨١٦) .

٨- مُبَادأةُ السَّلام على ذوي المراتب الدِّينيَّة : كأهل العلمِ والفَضْل احتراماً لهم وتوقيراً، بخلاف أهل المراتب الدُّنيويَّة [١].

٩- إعادةُ السَّلام عَلَى مَنْ تكرَّر لقاؤُهُ ، وإنْ لم يَطُلِ الافتراقُ ، فعن أبي هريرة - ﷺ - عن رسول الله - ﷺ - قال :

« إذا لَقِيَ أَحَدُكُمْ أخاه ، فَلْيُسَلِّمْ عَلَيْه ، فَإنْ حَالَتْ بَيْنَهُمَا شَجَرَةٌ ، أو حَائطٌ ، أو حَجَرٌ ، ثُمَّ لَقِيَهُ - فَلْيُسَلِّمْ عَلَيْه » [٢].

١٠- عَدَمُ التسَّليم بالإشارةِ ، سواءٌ أكانتِ الإشارةُ بالإصبعِ ، أم باليَدِ جَمِيْعِها ، أم بالإشارة بالرَّأس ، فعن جابرٍ - ﷺ - أنَّ النَّبيَّ - ﷺ - قال :

« تَسْلِيْمُ الرَّجُلِ بإصبعٍ واحدةٍ يُشِيْرُ بها فعْلُ اليَهُوْد » [٣].

وعنه مرفوعاً : « لاَ تُسَلِّمُوا تَسْلِيْمَ اليَهُوْدِ ؛ فَإِنَّ تَسْلِيْمَهُمْ بالرُّؤُوْسِ وَالأَكُفِّ » [٤] .

وعنه - أيضاً - : « لاتُسَلِّمُوا تَسْلِيْمَ اليَهُوْدِ والنَّصَارى ؛ فإنَّ تَسْلِيْمَهُمْ إشارةٌ بالكُفُوف » [٥].

إلاَّ أنَّه يُسْتَثْنَى من ذلك حال الصَّلاة ، فعن ابن عُمَرَ - ﷺ - قال : خرج رسولُ اللهِ - ﷺ - إلى قُبَاءٍ يُصَلِّي فيه ، فجاءَتْهُ الأنصارُ، فَسَلَّمُوا عليه، وهو يُصَلِّي .

---

(١) ذكر ذلك القرطبيُّ - رحمه الله -.

(٢) رواه أبو داود في الأدب (٥٢٠٠) ، وصحَّحه الألبانيُّ في « صحيح الجامع » (٧٨٩) ، وفي «الصَّحيحة » (١٨٦) .

(٣) أخرجه الطَّبَرَانيُّ في « الأوسط » ، وأبو يَعْلَى في « المسند » ، والبيهقيُّ في « الشعب » ، وحسَّنه الألبانيُّ في « صحيح الجامع » (٢٩٤٦) ، وفي « الصَّحيحة » (١٧٨٣) .

(٤) أخرجه النسائيُّ بسند جيِّد.

(٥) رواه البيهقيُّ في « الشُّعَب»، وحسَّنه الألبانيُّ في « صحيح الجامع » (٧٣٢٧) ، وفي «الصَّحيحة » (١٧٨٣) .

قال : فقلتُ لبلالٍ :

« كيف رأيتَ رسولَ الله - ﷺ - يردُّ عليهم، حين كانوا يُسلِّمُون عليه وهو يُصلِّي ؟ » .

قال : « يقول هكذا » وبسط كَفَّهُ [١].

وكيفيَّة الإشارة باليد : أنْ يَبْسُطَ المُصلِّي كفَّه اليُمنى مستقيمةً ، فيجعل بَطْنَها إلى الأرض ، وظَهْرَها إلى السَّماء دون أن يَنْطقَ بالسَّلام .

وتجوز الإشارة بالسَّلام على مَنْ بَعُدَ عن سماع لفظه.

وأمَا إذا كانت إشارة اليد بالسَّلام مصاحبةً للنُّطق به فجائزٌ ، فعن أسماءَ بنت يزيَد الأنصاريَّة - رضي الله عنها -: «أنَّ رسولَ الله - ﷺ - مرَّ في المسجد يوماً، وعُصْبَةٌ من النِّساءِ قُعُودٌ ، فأَلْوَى بيده بالتَّسليم» [٢].

فهذا محمولٌ على أنَّه - عليه الصَّلاة والسَّلام - جمع بين اللَّفظ والإشارة ، ويؤيِّدُهُ أنَّ في رواية أبي داود: « فَسَلَّمَ علينا » .

١١- عدم السَّلام عَلَى مَنْ كانَ يَقْضي حاجته من بولٍ وغائطٍ ، فإنْ سلَّم عليه أحدٌ فلا يَرُدُّ عليه السَّلام حتَّى يتوضَّأ ، فعن ابن عُمَرَ - رضي الله عنهما - قال:

«مَرَّ رجلٌ على النَّبيِّ - ﷺ - وهو يبولُ، فسلَّم عليه، فلم يَرُدَّ عليه» [٣].

ورُوي عن ابن عُمَرَ وغيره أنَّ النَّبيَّ -ﷺ- تَيَمَّم، ثمَّ ردَّ على الرجُلِ السَّلامَ.

---

(١) أخرجه أبو داود في الصَّلاة (٩٢٧) ، والتِّرمذيُّ في الصلاة (٣٦٨) ، وأحمد في «المسند» (٣٠/٢) بإسنادٍ صحيحٍ على شرط الشَّيخين . انظر « السلسلة الصَّحيحة » (١٨٥).

(٢) رواه أبوداود في الأدب (٥٢٠٤) ، والترمذيُّ في الاستئذان (٢٦٩٧) وحسَّنه ، وصحَّحه الألبانيُّ في « صحيح الجامعِ » (٥٠١٥) ، وفي «الصحيحة » (٢١٣٩).

(٣) رواه أُصحاب السُّنَنَ في الطهارة ، وهو عند أبي داود (١٦) ، والتِّرمذيِّ (٩٠) ، وقال «حَسَنٌ صحيحٌ »، والنَّسائي (٣٧) ، وابن ماجة (٣٥٣).

وعن المهاجر بن قُنْفُذٍ أنَّه أتى النَّبيَّ - ﷺ - وهو يبولُ ، فسلَّم عليه، فلم يَرُدَّ عليه حتَّى توضَّأَ ، ثم اعتذر إليه ، فقال :

« **إني كَرِهْتُ أنْ أذْكُرَ اللهَ - تعالى ذِكْرُهُ - إلاَّ عَلَى طُهْرٍ** » . أو قال : «**على طَهَارَةٍ** » [1].

١٢- عَدَمُ قولِ : عليكَ السَّلامُ ابتداءً ، فعن أبي جُرَيٍّ جابرِ بْنِ سُلَيْمٍ الهُجَيْميِّ قال: أتيتُ رسولَ الله - ﷺ - فقلتُ : « عليكَ السَّلامُ ، يا رسولَ الله» فقال : « **لا تَقُلْ : عليك السَّلامُ ؛ فإنَّ عليك السَّلامُ تحيَّةُ الموْتَى**» [2].

١٣- عَدَمُ التَّسليم - أو الرَّدِّ - عَلَى المُبْتَدِعِ، ومَنِ اقْتَرَفَ ذَنْبًا عظيمًا، حتَّى تتبيَّنَ توبتُهُ ، فعن عبد الله بن كَعْبٍ قال: «سمعتُ كَعْبَ بْنَ مَالكٍ يُحَدِّثُ حينَ تَخلَّفَ عَن تَبُوكَ ، ونهى رسولُ الله - ﷺ - عَنْ كَلامنا ، وآتي رسولَ الله - ﷺ - فأُسَلِّمُ عليه، فأقولُ في نَفْسي : هَلْ حَرَّكَ شَفَتَيْه بِرَدِّ السَّلامِ أم لا ؟ ، حتَّى كَمُلَتْ خَمْسُونَ ليلةً ، وآذَنَ النَّبيُّ - ﷺ - بتوبة الله عَلَيْنا حيْنَ صلَّى الفَجْرَ » [3].

وقال عبدُ اللهِ بْنِ عمْرٍو - رضي الله عنهما -: « لا تُسلِّموا على شَرَبَةِ الخَمْرِ » [4].

---

(١) رواه أبو داود في الطَّهارة (١٧) ، والنَّسائيُّ في الطَّهارة (٣٨)، وابن ماجَة في الطَّهارة (٣٥٠) ، وصحَّحه الألبانيُّ في «صحيح الجامع » (٢٤٧٢) ، وفي «الصَّحيحة » (٨٣٤).

(٢) رواه أبو داود في اللِّباسِ (٤٠٨٤) ، وفي الأدب (٥٢٠٩) ، والتِّرمذيُّ في الاستئذان (٢٧٢١) و (٢٧٢٢) ، وقال : « حسن صحيح »، وصحَّحه الألبانيُّ في « صحيح الجامع » (٧٤٠٢) ، وفي «الصحَّيحة » (١٤٠٣).

(٣) رواه البخاريُّ في الاستئذان (٦٢٥٥).

(٤) رواه البخاريُّ في كتاب الاستئذان، باب : مَنْ لم يُسلِّمْ على مَنِ اقْتَرَفَ ذَنْبًا، ولَم يَرُدَّ سَلامَهُ، حتَّى تتبين توبته...

١٤- عَـدَمُ بَدْءِ الكافرِ بالسَّلامِ ، ويُرَدُّ عليـه بـقول : وعليك، فعن أبي هريرة – رضي الله عنه – أنَّ رسولَ الله – ﷺ – قال:

« **لا تَبْدَءُوا اليَهُود وَلا النَّصَارى بالسَّلامِ ، وإذا لَقِيتُمْ أَحَدَهُمْ في طريقٍ، فَاضْطَرُّوهُ إلى أَضْيَقِه** [١]» [٢].

وعن أنسٍ – رضي الله عنه – قال : قال رسول الله – ﷺ – :

« **إذا سَلَّمَ عليكم أَحَدٌ مِنْ أهلِ الكتابِ ، فقولوا : وعليكم** » [٣].

وعن ابن عُمَرَ – رضي الله عنه – قال : قال رسول الله – ﷺ –:

« **إذا سَلَمَ عليكمُ اليَهودُ ، فإنَّما يقولُ أَحَدُهُمْ : السَّامُ** [٤] **عليك ، فقل: وعليك** » [٥].

وإذا مررتَ على جماعةٍ فيهم مسلمون وكفَّارٌ ، فألْقِ السَّلامَ ناوياً به المسلمين ، فعن أسامةَ بْنِ زيدٍ – رضي الله عنه – أنَّ النَّبي – ﷺ – مَرَّ عَلَى مجلسٍ فيه أخلاطٌ مِن المسلمين والمشركين – عَبَدَةِ الأوثانِ واليَهُودِ –، فسلَّم عليهمُ النَّبيُّ – ﷺ – [٦].

---

(١) علَّةُ النَّهْي أنَّ السَّلام سببٌ للتَّحابِّ والتَّوادِّ ، وقد نهى اللهُ عن ذلك ، فقال : ﴿ لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ باللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ [المجادلة : ٢٢]. وقال بعضُ أهل العلم : « إنما معنى الكَرَاهِيَة ؛ لأنَّه يكون تعظيماً لهم ، وإنمَّا أُمِرَ المسلمون بتذليلهم ، كذلك إذا لقي أحدهم في الطريق ، فلا يترك الطريق عليه ؛ لأنَّ فيه تعظيماً لهم » .

(٢) رواه مسلمٌ في السَّلام (٢١٦٧).

(٣) رواه البخاريُّ في الاستئذان (٦٢٥٨) ، ومسلم في السلام (٢١٦٣).

(٤) **السَّامُ**: الموت .

(٥) رواه البخاريُّ في الاستئذان (٦٢٥٧) ، ومسلم في السَّلام (٢١٤٦).

(٦) رواه البخاريُّ في الاستئذان (٦٢٥٤) ، ومسلمٌ في الجهاد (١٧٩٨).

١٥- وأخيراً إن استطعت ألاَّ يسبقَكَ أَحَدٌ إلى السَّلام فافعلْ ، فإنَّ رسول الله - ﷺ - قال: « **وخَيْرُهُما الذي يَبْدَأُ بالسَّلامِ** »[(١)] .

وعن أبي أُمامة الباهليِّ - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله - ﷺ - : «**إنَّ أَوْلَى**[(٢)] **النَّاسِ باللهِ مَنْ بَدَأَهُمْ بالسَّلامِ** »[(٣)] .

وبعد أن رَسَوْنا على شاطئ بحر هذه الوسيلة الأولى مِنْ وسائلنا لكسب القلوب ، أقول لكم - إخواني في الله - كما قال ابنُ الوَرْديِّ :

« سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ ما أَحَبَّ وِصَالَكُمْ! وغَـايَةُ مَـجْـهُـودِ المُقِلِّ سَـلامُ» .

وكما قال الآخرُ:

« سَـــلاَمٌ إذا لَمْ تَكُنْ لُقْـــيَـــةٌ وَإنَّ يَداً[(٤)] أنْ تَرُدُّوا السَّـــلاَمَـــا » .

---

(١) رواه البخاريُّ في الأدب (٦٠٧٧)، وفي الاستئذان (٦٢٣٧)، ومسلمٌ في البرِّ والصِّلة (٢٥٦٠) عن أبي أيُّوب الأنصاريِّ.

(٢) أي أحقُّ بالقرب منه بالطَّاعة وذكره -جلَّ وعَلا- .

(٣) رواه أبو داود - واللَّفظ له - في الأدب (٥١٩٧) ، والتِّرمذيُّ في الاستئذان (٢٦٩٤) وحسَّنه ، وصحَّحه الألبانيُّ في « صحيح الجامع » (٢٠١١).

(٤) لا يُقْصَدُ باليد هنا اليَدُ الحقيقيَّةُ ، وإنَّما يُقْصَدُ بها النِّعمةُ والعَطَاءُ ، وقد أُطْلِقَت اليَدُ بدلاً عن النِّعمة؛ لأنَّها هيَ التي تَمْنَحُهَا ، فهي سببٌ فيها، ففي البيت مَجَازٌ مُرْسَلٌ علاقَتُهُ السَّبَبِيَّةُ .

التَّبَسُّم

إذا أردت أن يُحبَّك الناسُ بغير نائلٍ [١]، فابسطْ لهم وَجْهَكَ يُحبُّوك ، وأقبلْ عليهم بالتَّبَسُّم يألَفُوكَ ، فالتَّبَسُّم مفتاحٌ – مؤكَّدُ النَّتيجة – لفتح كثير من القلوب .

«أخُو البِشْرِ مَحْبُوبٌ على حُسْنِ بِشْرِه ... ولَنْ يَعْدَمَ البَغْضَاءَ مَنْ كَانَ عَابِسا» [٢]

والتَّبسُّم : هو انفراجُ الفَمِ بلا صوت ، ويكون – غالباً – للسُّرور ، قال الله – سبحانه وتعالى – : ﴿ **فَتَبَسَّمَ ضَاحِكاً مِّن قَوْلِهَا** ﴾ [النمل : ١٩] .

وكانت البَسْمَةُ أقْرَبَ ما تكون إلَى قلب النَّبيِّ – ﷺ –، فعن جَرير بن عبد الله البَجَليِّ – رضي الله عنه – قال : « ما رآني رسولُ الله – ﷺ – إلاَّ وتبَسَّمَ فِي وَجْهِي » [٣].

بل كانت البَسْمَةُ من ضِمْنِ وصاياه للنَّاس ، حتى رفعها إلى مستوى الصَّدَقة ، فعن أبي ذرٍّ – رضي الله عنه – قال : قال رسول الله – ﷺ –: «**تَبَسُّمُكَ فِي وَجْهِ أخيْكَ لَكَ صَدَقَةٌ** » [٤].

وجعل – ﷺ – لقاء الناس بوَجْهٍ طليقٍ – أيْ باسمٍ مُتَهَلِّلٍ بالبِشْر والتَّرْحاب – من قبيل المعروف، فعن أبي ذرٍّ – رضي الله عنه – قال: قال لي رسول الله – ﷺ –: «**لا تحْقِرَنَّ مِنَ المَعْرُوْفِ شَيئاً، ولو أنْ تَلْقَى أخاكَ بِوَجْهٍ طَلْقٍ**» [٥].

---

(١) **النَّائل** : العَطِيَّة .

(٢) «روضة العقلاء» (ص٧٥) .

(٣) رواه البخاريُّ في الأدب (٦٠٨٩) ، ومسلمٌ في فضائل الصَّحابة (٢٤٧٥) .

(٤) رواه التِّرمذيُّ في البرِّ والصِّلة (١٩٥٦) ، وصحَّحه الألبانيُّ في « صحيح الجامع » (٢٩٠٨) ، وفي « الصحيحة » (٥٧٢) .

(٥) رواه مسلم في البرِّ والصِّلة (٢٦٢٦) .

«ازْرَعِ البَسْمَةَ في الكَوْنِ، ولا   تَقْتُلِ الحُسْنَ بخَلْقِ الحَزَنِ
كُنْ سَفِيرَ السَّعْدِ في كَوْكَبِنَا   بابتسامٍ، مِثْلَ طَهَ فَكُنِ
كانتِ البَسْمَةُ لا تَهْجُرُهُ   ابْتِسَامُ المَرْءِ بَعْضُ السُّنَنِ
رُتِّبَ الأَجْرُ على البَسْمَةِ، والـ   عَبْسُ بِئْسَ الفِعْلُ بَخْسُ الثَّمَنِ».

فعليك –أخي في الله– الإكثار من التَّبَسُّم، والإقلال من الضَّحِك؛ فهذا هو هَدْيُ نبيِّنا – ﷺ –، فعن عبد الله بن الحارث بن جَزْءٍ – رضي الله عنه – قال:

« ما رأيتُ أحداً أكثرَ تبسُّماً منْ رسولِ الله – ﷺ –» [1].

والرسول – ﷺ – كان يَضْحَكُ، لكنَّه لم يكن هَدْيُهُ – ﷺ – الإكثارَ منه، بل كان وَقُوراً مُتَّزناً هادئاً، كما وصفه جابرُ بْنُ سَمُرَة – رضي الله عنه – قال: «إنَّ النَّبيَّ – ﷺ – كان طويلَ الصَّمْتِ، قَلِيْلَ الضَّحِكِ» [2].

وعن عبد الله بن الحارث بن جَزْءٍ قال: « ما كان ضَحِكُ رسولِ الله – ﷺ – إلا تَبَسُّماً » [3].

وعن عائشةَ – رضي الله عنها – قالت: « مارأيتُ رسولَ الله – ﷺ – مُسْتَجْمِعاً [4]

---

(١) رواه التِّرمذيُّ في المناقب (٣٦٤١)، وصحَّحه الألبانيُّ في « صحيح التِّرمذيِّ » (٢٨٨٠ – ٣٩٠٣).

(٢) رواه أحمد في « المسند »، والبغويُّ في « شرح السنة » دون قوله: « قليل الضَّحك »، وحسَّنه الألبانيُّ في « صحيح الجامع » (٤٨٢٢).

(٣) رواه الترمذيُّ في المناقب (٣٦٤٢)، وصحَّحه الألبانيُّ في « صحيح التِّرمذيِّ » (٢٨٨١ – ٣٩٠٤).

(٤) **مُسْتَجْمِعاً**: مُبالغاً في الضَّحك لم يتركْ منه شيئاً.

قَطُّ ضاحكاً، حتّـى أرى منـهُ لَهَوَاته [١]؛ إنَّمَا كان يـتـبسَّمُ » [٢].

واعلم – أخي في الله – أنَّ كَثْرَةَ الضَّحك مذمومٌ ؛ لأنه يُذْهِبَ الوقَارَ والهَيبةَ ، بل ويُميتُ القلبَ، فعن أبي هريرة – رضي الله عنه – قال : قال رسول الله – ﷺ –: « **وأَقِلَّ الضَّحكَ ؛ فإنَّ كثرَةَ الضَّحك تُميتُ القَلْبَ** » [٣].

وقال عُمرُ بنُ الخطَّاب – رضي الله عنه –: « مَنْ كَثُرَ ضَحِكُهُ ، قلَّتْ هيْبتُهُ ، ومَنْ أكْثَرَ مِنْ شَيْءٍ عُرِفَ به » [٤].

وقال الماورديُّ – رحمه الله –: « أمَّا الضَّحكُ فإنَّ اعتيادَهُ شاغلٌ عن النظر في الأمور المُهمَّة ، مُذْهبٌ عن الفكر في النَّوائب [٥] المُلمَّة ، وليس لمَنْ أكثر منه هَيْبةٌ ولا وَقَارٌ ، ولا لِمَنْ وُصِمَ به خَطَرٌ [٦] ولا مقدارٌ» [٧].

والتبسُّم هو الأصل ، وهو أبلغُ في التأثير ، وهو – مع ذلك – أكثرُ ضحك الأنبياء ، كما قال الزَّجَّاج – رحمه الله – ، وقال عمر بن الخطَّاب – رضي الله عنه –: « التَّبَسُّمُ دُعَابَةٌ » [٨].

---

(١) قال ابن حجرٍ –رحمه الله–: «اللَّهَوَات: جمع لَهَاة ، وهي اللَّحمة التي بأعلى الحَنْجُرة من أقصى الفَم ، يعني : ما يكون ضاحكاً تامّاً بكلِّيّته على الضَّحك ، بحيث تبدو اللَّهاة التي في آخر الفم».
وقال –أيضا–: بعد استعراض عَدَد من الأحاديث المَتعلِّقة بالتَّبَسُّم والضَّحك : « والذي يظهر من مجموعة الأحاديث أنَّه –ﷺ– كان لا يزيد في معظم أحواله على التَّبسُّم ، وربَّما زاد على ذلك فضحك ، والمكروه في ذلك إنما هو الإكثار منه أو الإفراط ؛ لأنه يذهب الوقَار » . «فتح الباري» ، باب التَّبسُّم والضَّحك.

(٢) رواه البخاريُّ في التفسير (٤٨٢٨) ، وفي الأدب (٦٠٩٢) ، ومسلمٌ في صلاة الاستسقاء (٨٩٩).

(٣) رواه التِّرمذيُّ في الزُّهْد (٢٣٠٥) ، وابن ماجَة في الزُّهْد (٤٢١٧) ، وحسَّنه الألبانيُّ في « صحيح الجامع » (١٠٠) و (٧٤٣٥) ، وفي « الصحيحة » (٩٣٠) و (٥٠٥) .

(٤) انظر « المنهج المسلوك في سياسة الملوك » للشيرازي (ص ٤٥٠).

(٥) **النَّوائب** : جمع نائبة، وهي المصيبة والنَّازلة .

(٦) **الخَطَر** – بفتحتين –: القدر والمَنزِلة.

(٧) « أدب الدنيا والدين » (ص٣١٣) .

(٨) المرجع السابق (ص٣١٣) .

«تبسَّمْ، فقدْ طَالَ علَى الوُرْقِ [١] غفْوةٌ ... وفي وَجْهكَ الوَضَّاحِ فَجْرُ الدَّيَاجرِ [٢]

تبَسَّمْ ، وزَوِّدْنا القَليْلَ ، فإنَّنا ... علَى سَفَرٍ، يا نعْمَ زادُ المُسَافرِ

طَوَى الحبُّ ما بيْني وبيْنكَ منْ مَدَىً ... فَنَحْنُ قَرينا مَوْطنٍ مُتَجاوِرِ

ويُعْجبُنَا أنْ لا نرَى فيْكَ مُعجباً ... مُدِلاًّ علَى الأَيَّامِ إدْلَالَ ظَافِرِ [٣]

بَشُوْشَاً ، تكادُ العينُ تَلْمَحُ قَلْبَهُ ... وتَسْرُدُ [٤] في نجْواهُ نَظْمَ السَّرائرِ

وتَضْحَكُ، والأَتْراحُ [٥] حَوْلَكَ جَمَّةٌ [٦] ... تَخافُكَ خَوْفَ الجنِّ رَجْمَ الزَّواهِرِ [٧] » [٨].

والتبسم لا يقتصر على كسب القلوب ، وتكثير الحسنات ، وتكفير السَّيِّئات، بل إنه مفيدٌ للطِّباع ، وباعثٌ على السُّرور والانشراح ، والاستمتاع بمباهج الحياة .

قال الجاحظ في مقدِّمة كتاب « البُخَلاء » شارحاً بعض فضائل التبسُّم : « وكيف لا يكون موقعُهُ من سرور النفس عظيمًا ، ومن مصلحة الطِّباع كبيراً، وهو شيءٌ من أصل الطِّباع ، ومن أساس التركيب ؛ لأن الضَّحكَ أوَّلُ خير ظهر من الصَّبيِّ ، وبه تَطِيْبُ نَفْسُهُ ، وعليه ينبُتُ شَحْمُهُ ، ويكثُر دَمُهُ الذي هو علَّةُ سروره ، ومادَّةُ قُوَّته » .

وقال أحمد أمين في كتابه « فيض الخاطر » : « ليس المبتسمون للحياة أَسْعَدَ حالاً لأنفسهم فقط ، بل هم - كذلك - أقدرُ على العمل ، وأكثرُ احتمالاً للمسئوليَّة ، وأصلحُ لمواجهة الشدائد ، ومعالجة الصِّعاب ، والإتيان بعظائم الأمور التي تنفعهم ، وتنفع الناس .

---

(١) **الوُرْقُ** : جمع ورْقاءَ ، وهي الحمامة في لونها بياضٌ إلى سواد .

(٢) **الدَّيَاجر** - ويجوز الدَّيَاجير بحذف الياء وثبوتها -: جمع دِيجور، وهو الظَّلام.

(٣) **إدلال ظافر**: وثوق منتصر، يقال: فلانٌ يدلُّ بفلانٍ: أي يثق به.

(٤) **تسرد**: تنسج.

(٥) **الأَتْراح** : الأحزان، مُفردها ترَح .

(٦) **جَمَّة** : كثيرة .

(٧) **الزواهر**: النجوم.

(٨) « الأعمال الكاملة » للعقاد (١/٤٠-٤١).

لو خُيِّرْتُ بين مالٍ كثيرٍ – أو منصبٍ خطيرٍ – وبين نفسٍ راضيةٍ باسمةٍ – لاخترتُ الثانية ، فما المالُ مع العبوس ؟! ، وما المنصبُ مع انقباض النفس ؟! ، وما كُلُّ ما في الحياة إذا كان صاحبه ضيِّقاً حَرَجاً ، كأنه عائدٌ من جنازةِ حبيبٍ ؟! .

وما جمالُ الزَّوجة إذا عبستْ ، وقلبَتْ بيتَهَا جحيماً ؟! ، لخيرٌ منها –ألفَ مرَّةٍ – زوجةٌ لم تبلغْ مبْلَغَهَا من الجمال ، وجعلتْ بيتَهَا جنَّةً !.

ولا قيمةَ للبَسْمَةِ الظاهرة إلا إذا كانتْ منبعثةً ممَّا يَعْتري طبيعةَ الإنسان من شذوذٍ ، فالزَّهْر باسمٌ ، والغاباتُ باسمةٌ ، والبحارُ ، والأنهارُ ، والسَّماءُ ، والنُّجومُ ، والطُّيور ـ كلُّها باسمةٌ ، وكان الإنسان بطبْعه باسماً ، لولا ما يَعْرِضُ له من طَمَعٍ ، وشرٍّ ، وأنانيةٍ تجعله عابساً ، فكان بذلك نشازاً في نغمةِ الطبيعةِ المُنْسجمة » .

وما أجمل ما قاله أحد الشعراء :

« قال : السَّماءُ كئيبةٌ ، وتجهَّمَا ... قلْتُ: ابْتَسِمْ، يَكْفي التَّجَهُّمُ في السَّما!
قال : الصِّبَا[1] ولّى!، فَقُلْتُ لَهُ: ابْتَسِمْ ... لَنْ يُرْجِعَ الأَسَفُ الصِّبا المُتَصَرِّمَا[2]!
قال : الَّتي كانَتْ سَمَائِي في الهَوَى ... صَارَتْ لِنَفْسي في الغَرَامِ جَهَنَّمَا
خَانَتْ عُهُودي بَعْدَمَا مَلَّكْتُهَا ... قَلْبي ، فَكيفَ أُطيقُ أَنْ أَتَبَسَّمَا؟!
قلتُ : ابْتَسِمْ، واطْرَبْ ، فلو قَارَنْتَهَا ... قَضَّيْتَ عُمْرَكَ كُلَّهُ مُتَأَلِّمَا !
قال: التِّجَارَةُ في صِرَاعٍ هَائِلٍ ... مِثْلُ المُسَافِرِ كَادَ يَقْتُلُهُ الظَّمَا[3]
أو غَادَةٍ[4] مَسْلُولَةٍ مُحْتَاجَةٍ ... لِدَمٍ ، وَتَنْفُثُ كُلَّمَا لَهَثَتْ دَمَا!

(١) **الصِّبا** : الفتوَّة والشباب.
(٢) **المتصرِّم** : المنسلخ المنقضي.
(٣) **الظما** : أصلها الظمأ بالهمز، وهو العطش .
(٤) **الغادة** : المرأة الجميلة النَّاعمة الكفين، الليِّنة الأطراف.

قُلْتُ : ابْتَسِمْ ، مَا أَنْتَ جَالِبُ دَائِهَا   وَشِفَائِهَا ، فَإِذا ابْتَسَمْتَ فَرُبَّمَا

أيكونُ غَيْرُكَ مُجْرِماً ، وتَبِيتُ في   وَجَلٍ[1] كَأَنَّكَ أَنْتَ صِرْتَ الْمُجْرِمَا ؟!

قال: العِدَى [2] حَوْلِي عَلَتْ صَيْحَاتُهُمْ   أَأُسَرُّ والأعداءُ حَوْلِي في الحِمَى [3] ؟!

قُلْتُ : ابْتَسِمْ ، لم يَطْلُبُوكَ بِذَمِّهِمْ   لَوْ لم تَكُنْ مِنْهُمْ أَجَلَّ وَأَعْظَمَا !

قال : المَوَاسِمُ قد بَدَتْ أَعْلامُهَا   وتَعَرَّضَتْ لي في المَلابِسِ والدُّمَى

وعَلَيَّ للأَحْبَابِ فَرْضٌ لازِمٌ   لَكِنَّ كَفِّي لَيْسَ تَمْلِكُ دِرْهَمَا

قلتُ : ابْتَسِمْ ، يَكْفِيكَ أَنَّكَ لَمْ تَزَلْ   حَيّاً ، وَلَسْتَ مِنَ الأَحِبَّةِ مُعْدِمَا !

قال : اللَّيالِي جَرَّعَتْنِي عَلْقَماً   قلتُ : ابْتَسِمْ ، وَلَئِنْ جَرَعْتَ العَلْقَمَا

فَلَعَلَّ غَيْرَكَ إِنْ رَآكَ مُرَنَّماً   طَرَحَ الكَآبَةَ جَانِباً ، وَتَرَنَّمَا

أَتُرَاكَ تَغْنَمُ بِالتَّبَرُّمِ دِرْهَماً   أَمْ أَنْتَ تَخْسَرُ بِالبَشَاشَةِ مَغْنَمَا ؟!

يا صَاحِ[4] ، لا خَطَرٌ عَلَى شَفَتَيْكَ أَنْ   تَتَثَلَّمَا [5] ، والوَجْهِ أَنْ يَتَحَطَّمَا

فَاضْحَكْ فإنَّ الشُّهْبَ[6] تَضْحَكُ والدُّجَى[7]   مُتَلاطِمٌ ؛ ولذا نُحِبُّ الأَنْجُمَا !

قال : البَشَاشَةُ لَيْسَ تُسْعِدُ كَائِناً   يَأْتِي إلى الدُّنيا وَيَذْهَبُ مُرْغَمَا

قُلْتُ: ابْتَسِمْ، مَادَامَ بَيْنَكَ والرَّدَى[8]   شِبْرٌ ؛ فَإِنَّكَ بَعْدُ لَنْ تَتَبَسَّمَا[9] » .

---

(١) **الوَجَلُ** : خفقانُ القلبِ عند ذِكْرِ مَنْ يخاف سَطْوته، وبابُهُ وَجِعَ.

(٢) **العدى**: الأعداء

(٣) **الحَمى** : المحمي، وهو المحظور على غير مالكه .

(٤) **صَاحِ** : أصلها كلمة صاحب، نوديت نداءَ ترخيمٍ بحذف الباء ، وبقيَ ما قبلَ الباءِ على حركته قبلِ الحذف على لغة من ينوي المحذوف .

(٥) **الثَّلْمُ والثُّلْمة** : الكسر في الإناء ونحوه .

(٦) **الشُّهُب** – بضم الهاء أو سكونها – : جمع شِهابٍ .

(٧) **الدُّجى** : ظلام الليل ، والمفرد دجْيَة .

(٨) **الرَّدى** : الموت والهلاك .

(٩) بلى المؤمن يتبسم في الجنة، فلعلّ الشاعر لم ينفِ ذلك، وإنما مراده الاستمتاع ببهجة الحياة؛ لأن المبتسمون للحياة هم أسعد الناس.

التّنادي بأحبِّ الأسماء

إنَّ ما يُحبِّبُ المَرْءَ إلى الناسِ ، ويُقرِّبُهُ من قلوبهم- التّنادي بأحبِّ الأسماء، فليس ثَمَّةَ شيْءٌ أحبُّ للإنسان من نفسه ، وحفْظُكَ لاسْمِه دليلٌ على تقديرك لشخصه ، ومتى عمدت إلى اسمٍ محبوبٍ إلى نفسه ، وناديته به إلاَّ هَابَكَ ، واعْتَقَدَ مَوَدَّتَكَ ، وكان رسول الله - ﷺ - ينادي أصحابه بأحبِّ الأسماء إليهم ، حتى الأطفال الصِّغار كان يُكَنِّيهِمْ أحياناً [١].

عَنْ أنسٍ - رضي الله عنه - قال : كان النَّبيُّ - ﷺ - أَحْسَنَ النَّاسِ خُلُقاً ، وكان لي أخٌ يُقَال له أبو عُمَيْرٍ ، وكان النَّبيُّ - ﷺ - إذا جاء يقولُ لَهُ: « **يا أبا عُمَيْرٍ ، ما فَعَلَ النُّغَيْرُ** [٢]؟ » [٣].

والكُنْيَةُ نَوْعُ تكثيرٍ وتفخيمٍ للمُكَنَّى ، وإكرامٍ له ، كما قيل :

« أُكَنِّيْهِ حِيْنَ أُنَادِيْهِ ؛ لأُكْرِمَهُ ولا أُلَقِّبُهُ، ما أَسْوأَ اللَّقَبا !
كَذَاكَ أُدِّبْتُ حتَّى صَارَ مِنْ خُلُقِي إنِّي وَجَدْتُ مِلاَكَ الشِّيْمَةِ [٤] الأَدَبَا».

وكما أن التنادي بأحبِّ الأسماء يُقرِّب المرءَ من القلوب ، ويَزْرَعُ الوُدَّ والمحبَّةَ ، فإنَّ التَّنابُزَ بالألقاب يُحَوِّلُ المرءَ من مؤمنٍ إلى فاسقٍ ،كما قال الله - سبحانه وتعالى -: ﴿ **وَلاَ تَنَابَزُوا بِالأَلْقَابِ بِئْسَ الاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الإِيمَانِ** ﴾ [الحجرات : ١١].

---

(١) **فائدة** : قال العلاّمة ابن القيِّم - يرحمه الله - في كتابه « تُحفة الودود » (ص١٠١) ما نصُّه : «لا يلزم من جواز التكنية أن يكون له ولد ، وأن يُكَنَّى باسم ذلك الولد ، والله أعلم » .

(٢) **النُّغَيْر** : تصغير نُغَر واحد النُّغْران، وهو طائر أحمر المنقار، يشبه العصفور، كان يلعب به فمات فحَزِن عليه ، فكان رسول الله - ﷺ - يستقبله ، ويقول له ذلك مازحاً ومداعباً، والنُّغَرة واحدة النُّغَر.

(٣) رواه البخاريُّ في الأدب (٦١٢٩) و(٦٢٠٣) ، ومسلم في الآداب (٢١٥٠) .

(٤) **مِلاك الشِّيْمَة** : عِمادها وقوامها ، **والشِّيْمَةُ** - بالكسر - : الخلق ، والجمع شِيَم .

روى أبو جُبَيْرَةَ بْنُ الضَّحَّاك - رضي الله عنه - قال : نزلتْ هذه الآيةُ في بَني سَلَمَةَ : ﴿ وَلا تَنَابَزُوا بالأَلْقَاب بِئْسَ الاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الإِيمَان ﴾ ، قال : قَدِمَ علينا رسول الله - ﷺ - وليس منَّا إلا وَلَهُ اسْمَان ، أو ثلاثةٌ ، فجعل النَّبيُّ - ﷺ - يقول : « يا فُلانُ » . فيقولون : مَهْ [١] يا رسولَ الله ؛ إنَّه يَغْضَبُ مِنْ هذا الاسْمِ ، فأُنْزِلَتْ هذه الآيةُ : ﴿ وَلا تَنَابَزُوا بالأَلْقَاب ﴾ [٢] .

ومن اللَّطائف في هذا الباب أن الملائكة تصعد بنفس المؤمن الطَّيِّبة :

« فلا يمرُّون بها على مَلإٍ منَ الملائكة إلاَّ قالوا : ما هذا الرُّوحُ الطيِّبُ ؟! . فيقولون : فُلاَنُ بْنُ فُلاَنٍ بأَحْسَنِ أسمائِه التي كانوا يُسَمُّونه بها في الدنيا .

أمَّا الرُّوحُ الخبيثةُ فيقولون : فُلاَنُ بْنُ فُلاَنٍ بأَقْبَحِ الأسماءِ التي كان يُسَمَّى بها في الدنيا » [٣] .

---

(١) مَهْ : كلمةُ نَهْيٍ وزَجْرٍ ، وهي فعل أمر بمعنى : انْكَفِفْ عمَّا أنت فيه ، وليس بمعنى : اكْفُفْ كما يقول بعض النُّحاة ؛ لأنَّ (مَهْ) لا يتعدَّى فمثله مثل (انكفف) ، بخلاف (اكْفُفْ) فهو مُتَعَدٍّ .

(٢) رواه أبو داود في الأدب (٤٩٦٢) ، والتِّرمذيُّ في تفسير القرآن (٣٢٦٨) ، وقال : « حَسَنٌ صحيح » ، وابن ماجَة في الأدب (٣٧٤١) ، وصحَّحه الألبانيُّ .

(٣) انظر مسند الإمام أحمد (٢٨٧/٤) ، فهو حديث مطوَّل ، وإسناده صحيحٌ .

المُصَافحة

المُصَافحَةُ من أعظم وسائل كسب القلوب ، وهي سنَّةٌ ، ومن الأعمال الصالحات التي تُكفِّر الذُّنوب ؛ لحديث البَرَاء بْن عَازِب - رضي الله عنه - قال: قال رسولُ الله - ﷺ - : « **ما مِنْ مُسْلِمَيْنِ يَلْتَقِيَانِ فَيَتَصَافَحَانِ، إلاَّ غُفِرَ لَهُمَا قَبْلَ أنْ يَتفرَّقَا** » (١).

ومِمَّا يدلُّ على أنها سُنَّةٌ حديثُ ابنِ مسعودٍ - رضي الله عنه -: قال : « علَّمَني رسولُ الله - ﷺ - التَّشَهُّدَ ، وكفِّي بيْنَ كفَّيه » (٢).

وقال أنسُ بْنُ مَالك - رضي الله عنه -: « كَانَ أَصْحَابُ رسول الله - ﷺ - إذا تَلاَقَوْا تَصَافَحُوا ، وإذا قَدِمُوا تعانَقُوا » (٣).

وعنه - أيضاً - قال : قال رَجُلٌ : « **يا رسولَ الله ، أَحَدُنَا يَلْقَى صَدِيْقَهُ، أَيَنْحَني لَهُ؟** » . قال : « لا » قال : « **فَيَلْزَمُهُ ويُقَبِّلُهُ؟** » قال : « لا » . قال : « **فَيُصَافِحُهُ ؟** » . قال : « **نَعَمْ ، إنْ شَاءَ** » (٤).

وعن قَتَادَةَ قال : قلتُ لأَنَسٍ : « أَكَانَتِ المُصَافحةُ في أصحابِ رسولِ الله - ﷺ - ؟» . قال : « نَعَمْ » (٥).

(١) رواه أبو دواد في الأدب (٥٢١٢) ، والتِّرمذيُّ في الاستئذان (٢٧٢٧) ، وقال : « حَسَنٌ غريبٌ » ، وحسَّنه الألبانيُّ في « صحيح الجامع » (٥٧٧٧) ، وفي « الصَّحيحة » (٥٢٥).

(٢) رواه البخاري في الاستئذان (٦٢٦٥). ومِمَّا يزرع لكِ الوُدَّ في قلب أخيك أن تُصَافحَهُ ، وأنت مشرِق الوجه ، ولا تنزع يديك حتى يكونَ هو أوَّل من ينزع ، فقد كان من هَدْي النَّبيِّ - ﷺ - كما يقول ابنِ القيمِ في كتابه «زاد المعاد» : «إذا سلَّم على أحدٍ أقبل بوجْهه كُلِّه عليه مبتسماً، وما كان ينظر لأحدٍ شزراً ، وإذا صافح أحداً، لم ينزِعْ يده من يدِهِ، حتَّى يكون الآخرَ هو الذي ينزعه».

(٣) أخرجه الطَّبَرانيُّ ، ورجاله رجال الصَّحيح .

(٤) رواه التِّرمذيُّ في الاستئذان (٢٧٢٨) ، وحسَّنه ووافقه محقِّق «رياض الصالحين»، وابْنُ ماجَة في الأدب (٣٧٠٢)، وحسَّنه الألبانيُّ في «الصَّحيحة» (١٦٠).

(٥) رواه البخاريُّ في الاستئذان (٦٢٦٣).

وإذا صافَحَكَ أخوك فمن حسن الأدب ألاَّ تنْزِعَ يدك من يده، حتَّى يكون هو الذى ينزِعُ قبلك لحديث أنس بن مالك - رضي الله عنه - قال: «كان النبيُّ - ﷺ - إذا استقبله الرَّجُلُ فصافحهُ، لا ينْزِعُ يَدَهُ من يده، حتَّى يكونَ الرجلُ الذي ينزِعُ، ولا يصرفُ وَجْهَهُ عن وجْهِهِ، حتَّى يكون الرجل هو يصرفُهُ، ولم يُرَ مُقدِّمًا ركبتيه بين يدي جليس له» [1].

فهذا الذي جاء عن الصَّحَابة عُضَّ عليه بالنَّوَاجذ ، ولا تغترَّ بما يفعله بعضُ الناس من الإفراط في القُبَل على الخدِّ، والأيدي ، وأحياناً على الأرجل، فكُلٌّ هذا خلاف ما كان عليه السَّلَفُ المُقْتَدَى بهم! .

ومن الناس مَنْ يُصافحُ النِّساء، فإذا ما عُوتبَ في ذلك ، قال : هذه أُمِّي إن كانت عَجُوزاً ! ، أو أختي إن كانتْ شابَّة !، أو غير ذلك من المعاذير التي لا تنطلي إلاَّ على السُّذَّجِ .

ومصافحةُ النِّساء غير المحارمِ مُحَرَّمَةٌ لحديث مَعْقلِ بن يَسَارٍ - رضي الله عنه - قال: قال رسولُ الله - ﷺ -: « **لأَنْ يُطْعَنَ في رأسِ رَجُلٍ بمِخْيَطٍ [2] مِنْ حَدِيْدٍ خَيْرٌ لَهُ مِنْ أنْ يَمَسَّ امرأةً ، لا تَحِلُّ لَهُ** » [3].

وعن عائشة - رضي الله عنها - أنها ذكرتْ بيعةَ رسولِ الله - ﷺ - للنسَّاء، وامتحانَهُ لَهُنَّ، فقالتْ: « **لا واللهِ، ما مَسَّتْ يَدُ رسولِ اللهِ - ﷺ - يَدَ امرأةٍ قطُّ، غيرَ أنَّه يُبَايِعُهُنَّ بالكلامِ** » .

قالت عائشة - رضي الله عنها - : « **واللهِ، ما أخذَ رسولُ اللهِ - ﷺ - علَى النِّساءِ**

---

(١) رواه أبو داود (٤٧٩٤)، وقال الألبانيُّ في «صحيح أبي داود» (٣/٩١٠): حسن. وهو في «الصحيحة» (٢٤٨٥)، والتِّرمذيُّ (٢٤٩٠)، وقال محقِّق «جامع الأصول» (١١/٢٥٠): وهو حديث حسن.

(٢) **المخيَطُ** : الإبرة .

(٣) أخرجه الطَّبرانيُّ في «الكبير» (٢٠/٢١١- ٢١٢)، وصحَّحه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (٥٠٤٥)، وفي « الصحيحة » (٢٢٦).

قَطُّ إلاَّ بما أَمَرَهُ اللهُ - تعالى -، ومَا مَسَّتْ كَفُّ رسولِ الله - ﷺ - كَفَّ امرأةٍ قَطُّ، وكان يقولُ لَهُنَّ إذا أَخَذَ عَلَيْهِنَّ : « قَدْ بَايَعْتُكُنَّ » كلاماً » [١].

وعن أُمَيْمَةَ بنتِ رُقَيْقَةَ قالت : « أَتَيْتُ النَّبيَّ - ﷺ - في نساءٍ نُبَايِعُهُ، فأخذ علينا ما في القرآن ألاَّ نُشْرِكَ بالله شيئاً الآية ، قال : « **فيما اسْتَطَعْتُنَّ وأَطَقْتُنَّ** ». قلنا : « **اللهُ ورسولُهُ أَرحمُ بنَا من أَنْفُسنَا** » . قلنا : « يا رسولَ الله، أَلا تُصَافِحُنَا ؟ » . قال : « **إنِّي لا أُصافِحُ النِّساءَ ، إنَّما قولي لمائة امْرَأَةٍ كقولي لامرأةٍ واحدةٍ** » [٢].

---

(١) رواه البخاريُّ في الطلاق (٥٢٨٨) ، ومسلمٌ - واللَّفظ له - في الإمارة (١٨٦٦).
(٢) رواه التِّرمذيُّ في السير (١٥٩٧) ، وقال : « حسن صحيح » ، والنَّسائيُّ في البَيْعَة (٤١٨٦) وصحَّحه الألبانيُّ في « صحيح الجامع » (٢٥١٣) ، وفي « الصَّحيحة» (٥٢٩).

حُسنُ السَّمْتِ، وطيبُ الرَّائحةِ

حُسْنُ السَّمْتِ (أي المَظْهر والهَيْئة) ، وطيْبُ الرائحة من أسباب مَيْلِ القلوب إليك ، كما قيل : « الحليةُ في الظَّاهر تدلُّ على ميلِ الباطنِ » .

فعليك – أخي في الله – أن تعتني بمَظْهَرك؛ فإنَّ اللهَ جميلٌ يُحبُّ الجمال، ويُحبُّ أن يرى أثَرَ نعْمَته على عَبْده، قال الله – سبحانه وتعالى –: ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ [الأعراف: ٣١] .

وقال رسول الله – ﷺ – : « **إنَّ اللهَ جميلٌ ، يُحبُّ الجمالَ** » (١).

وممَّا يدلُّك على أنَّ حُسْنَ المظهر من أسباب ميل القلوب ما رواه عمر بن الخطَّاب – رضي الله عنه – قال : « بيْنَما نَحْنُ عنْدَ رسول الله – ﷺ – ذَاتَ يَوْمٍ، إذْ طَلَعَ عَلَيْنَا رَجُلٌ شَدِيْدُ بَيَاضِ الثِّيَابِ ، شَدِيدُ سَوَادِ الشَّعْرِ ، لا يُرَى عليه أَثَرُ السَّفَرِ ، وَلاَ يَعْرِفُهُ مِنَّا أَحَدٌ ، حتَّى جَلَسَ إلى النَّبيِّ – ﷺ – ... » (٢).

فالحكمة من مجيء جبريل – عليه السلام – بهذه الهَيْئَة الحَسَنَة من شدَّة بياض الثِّياب ، وشدَّة سواد الشَّعْر ؛ ليَعْظُمَ اتجاهُهُمْ إليه ، وإجلالُهُمْ له ، وإصغاؤهم لما يقول.

ولبعض السَّلَف عناية خاصَّةٌ بمظهرهم كعنايتهم بمَخْبرهم، ولا غَرْوَ (٣)؛ فديننا مَظْهَرٌ وجَوْهَرٌ في نفس الوقت .

قال عبدُ الملك الميمونيُّ –رحمه الله –: « ما أَعْلَمُ أنِّي رأيتُ أحداً أنْظَفَ ثوباً ، ولا أَشَدَّ تعاهداً لنفسه في شاربه ، وشَعْرِ رأسِه ، وشَعْرِ بَدَنه ، ولا أنقى ثوبًا، وشِدَّةَ بيَاضٍ – مِنْ أَحْمَدَ بنِ حَنْبَلٍ » (٤).

---

(١) رواه مسلم في الإيمان (٩١) عن ابن مسعود .
(٢) رواه مسلم في الإيمان (٨).
(٣) لا غرو : لا عجب .
(٤) « آداب طلب العلم » لابن رسلان (ص٢٩).

« عفواً لكَ اللهُ ، قدْ أحببْتُ طلعتَكُمْ لأنَّهـا ذكَّـرتْني سـيـرَ أسْـلافي
يَفْـديْكَ مَنْ جَـعلَ الدُّنيـا رِسَـالَتَـهُ من كُلِّ أمـثـالِه تُفْـدَى بآلافِ ».

فعلى المرء أن يعتنيَ بثيابه ، وأن يتطيَّبَ ، ويَسْتَاكَ ، ويُسرِّحَ لحيتَهُ ، وشَعْرَ رأْسِه ، وبالجُمْلَةِ أنْ يكونَ أحرصَ الناسِ على الكمَالِ ، وأبعدَهُمْ عَنِ النَّقْصِ ؛ لأنَّه مطمحُ الأنظارِ ، والنظر يفعل في القلب ، كما يفعل الكلام في السَّمع.

« لَو كنتُ أَحْملُ جَمْرًا حين زُرْتُكمُ لم يُنْكِرِ الكَلْبُ أنِّي صـاحبُ الدَّارِ
لكنْ أتيتُ وريحُ المِسْكِ يَقْـدُمُني[1] والعنْبَـرُ الندُّ مـشـبـوبٌ[2] على النَّارِ »

وقال النَّابغةُ الذُّبْيَانيُّ مادحًا الغَسَاسنةَ بطيبة ثيابِهِمْ ورائحتِهِمْ :

« رِقَاقُ النِّعَالِ[3] طيِّبٌ حُجزاتُهُمْ[4] يُحَيَّونَ بالرَّيْحَانِ[5] يَوْمَ السباسبِ[6] »

وقال آخرُ :

« يَمْشُوْنَ في الحُلَلِ المُضَاعَفِ نَسْجُهَا مَـشْيَ الجمـالِ إلى الجمـالِ البُـزَّلِ »

واعلم – أخي في الله – أن الناسَ يُصنِّفون المَرْءَ من لباسه؛ فَحَرِيٌّ بالعاقل أن يراعيَ عُرْفَ أهل بَلَده؛ حتَّى لا يُخِلَّ بمعاني المروءة، ولاسيَّما إذا كان العُرْفُ ممَّا يُقِرُّهُ الشَّرْعُ، وإلاَّ فالشَّرْعُ هو المعتمد، ولنا برسول الله – ﷺ – أسوةٌ حَسَنَةٌ.

---

(١) **يقدُمني**: يتقدَّمني، وبابه نَصَرَ.
(٢) **مشبوب**: مشْعَل، وبابه ردَّ.
(٣) **رقاق النِّعال** : نعالهم رقيقة لا يخصفونها، والعبارة كناية عَنْ قلَّة سيرهم على الأرض؛ لأنهم ملوك.
(٤) **حُجزة الإزار** : ما يشدُّ منه على الوسط ، والعبارة كناية عن عفَّتهم .
(٥) **الرَّيحان** : الطِّيب المعروف.
(٦) **السباسب** : يوم عيد النصارى، وهو اليوم الذي انتصر فيه الحارثُ الأعرجُ الغسَّانيُّ على المناذرة ، وعقبَ عودة عسكره منتصرين خرجتِ ابنته حليمةُ وضمَّختهم بالطِّيب .

« إنَّ العُيُونَ رَمَتْكَ إذْ فَاجَأْتَهَا   وَعَلَيْكَ مِنْ شهرِ الثِّيَابِ لِبَاسُ
أمَّا الطَّعامُ فكُلْ لِنفْسِكَ مَا تَشَا   واجْعَلْ لِباسَكَ ما اشْتَهَاهُ النَّاسُ» [١].

وعليك – أخي في الله – أَنْ تَسْلُكَ سُلُوكَ الاعتدالِ في المَلْبَسِ ، والمَظْهَرِ، وترك المغالاة ، والترفُّع في الثياب ؛ فإن المبالغة في ذلك تُحَوِّلُ كُلَّ صَفْوٍ إلى كَدَرٍ ، وكُلَّ لَذَّةٍ إلى مَرَارةٍ ؛ فعن أبي أُمَامةَ الحارثيِّ قال :

قال رسول الله – ﷺ – : « **البَذَاذَةُ** [٢] **مِنَ الإيمانِ** » [٣].

قال الخطيب البغداديُّ في شرحه لهذا الحديث نقلاً عن أبي عبد الله البوشنجيِّ – رحمه الله – قوله: « وأمَّا البَذَاذَةُ التي قال رسول الله – ﷺ – إنَّها من الإيمان فهي رَثَاثَةُ الثِّيابِ في المَلْبَسِ والمَفْرَشِ ، وذلك تواضع عن رفيع الثياب ، وثمين الملابس والمفترَش ، وهي ملابس أهل الزُّهْدِ في الدنيا ، يقال : فلانٌ بَذِيُّ الهَيْئَةِ : رَثُّ المَلْبَسِ ، والله أعلم » [٤].

وكما يلزمك – أخي في الله – سلوك الاعتدال، فإنه يجب عليك تجنُّب ما يزدريك مَن اللِّباس. قال عمر بن الخطَّاب – رضي الله عنه –: « إيَّاكم لبستين: لبسةً مشهورةً ، ولبسةً محقورةً » [٥].

---

(١) «أدب الدنيا والدين» (ص٣٥٣، ٣٥٤) .
(٢) **البَذَاذَةُ** : التَّقَشُّف وترْك فاخر اللِّباس .
(٣) رواه أبو داود في التَّرجُّل (٤١٦١) ، وابن ماجَة في الزُّهْد (٤١١٨) ، وصحَّحه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (٢٨٧٩) ، وفي « الصَّحيحة » (٣٤١).
(٤) « الجامع لأخلاق الراوي وأدب السامع » (١٥٤/١).
(٥) « أدب الدُّنيا والدِّين » (ص٣٥٣).

وقال بعض الحكماء : « البس من الثِّياب ما لا يَزْدَرِيْكَ [١] فيه العُظَماءُ ، ولا يَعِيبُهُ عليك الحُكَماءُ » [٢].

وقال الماورديُّ –رحمه الله–: « واعلم أنَّ المُروءةَ أنْ يكونَ الإنسانُ مُعْتَدِلَ الحال في مُراعاة لباسه من غير إكثارٍ ولا اطِّراحٍ ؛ فإنَّ اطِّراحَ مُراعاتها ، وتَرْكَ تفقُّدها مهانةٌ وذُلٌّ ، وكَثْرَةَ مُراعاتِها ، وصَرْفَ الهِمَّةِ إلى العناية لها دَنَاءَةٌ ونَقْصٌ .

ورُبَّما توهَّم بَعْضُ مَنْ خَلاَ مِنْ فَضْلٍ ، وعَرِيَ عن تمييزٍ – أنَّ ذلك هو المروءةُ الكاملةُ ، والسِّيرةُ الفاضلةُ ؛ لما يَرَى من تميُّزه عن الأكثرين ، وخُروجه عَنْ جُمْلَةِ العَوَامِّ المسترذلين ، وخَفِيَ عليه أنَّه إذا تعدَّى طَوْرَهُ ، وتجاوز قَدْرَهُ ، كان أقبحَ لذكرِه ، وأبْعَثَ على ذمِّه ، فكان كما قال المتنبِّي :

لا يُعْجِبَنَّ مَضِيْماً [٣] حُسْنُ بِزَّتِه [٤] وَهَلْ يَرُوقُ [٥] دَفِيْناً جَوْدَةُ الكَفَنِ ؟! » [٦]

قلتُ : ومثله قولُ الحريريُّ – وأَحْسَنَ –:

« وفَضِيْلَةُ الدِّينار يَظْهَرُ سِرُّهَا مِنْ حَكِّه ، لامِنْ مَلاَحَةِ نَقْشِه
ومِنَ الغَبَاوَة أنْ تُعَظِّمَ جَاهِلاً لِصَقَالِ مَلْبَسِه ، ورَوْنَقِ رَقْشِه
أو أنْ تُهِيْنَ مُهَذَّباً في نَفْسِه لِدُرُوسِ بِزَّتِه ، ورَثَّةِ فَرْشِه » [٧]

---

(١) يَزْدَرِيكَ : يعيبك ويَحْقِرُك .
(٢) « أدب الدُّنيا والدِّين » (ص٣٥٣).
(٣) المَضِيم : المَظْلُوم.
(٤) البِزَّة – بالكسر –: هيئة اللُّبْسِ .
(٥) رَاقَهُ الشيءُ : أعجبه.
(٦) « أدب الدُّنيا والدِّين » (ص٣٥٤).
(٧) « جواهر الأدب » (ص٦٩٩) .

ومن اللَّطائف في هذا الباب: ما ذكره الذَّهَبيُّ : أنَّ قُـرَادَ بْنَ نُوْحٍ قال : رأى عليٍّ شُعْبَـةُ قَميصـاً ، فقـال : « بكـم اشتريـتَ هـذا ؟». فـقلـتُ : « بثمانية دراهمَ » . فقال لي : « وَيْحَكَ! [1] أَمَا تتَّقي اللهَ ؟! ، أَلا اشتريْتَ قَميصاً بأربعة دراهمَ ، وتصدَّقت بأربعةٍ ، كان خيراً لك » .

قلتُ : « أنا مع قَـوْمٍ نـتـجمَّلُ لهم ! » .

قال : « أَيْـشٍ [2] نَـتَجَمَّلُ لهمْ ؟! » [3].

قال عَمْرو بن مَعْدِيْكَرِبَ :

« لَيْسَ الجَـمَـالُ بِمـئْـزَرٍ [4] ... فَـاعْلَـمْ ، وإنْ رُدِّيْـتَ بـرْدَا [5]
إنَّ الجَـمَـالَ مَـآثِرٌ [6] ... ومَنَاقِبٌ [7] أَوْرَثْـنَ حَـمْـدَا» .

(١) ويحك : كلمة لإظهار الشَّفقة والتَّرحُّم .
(٢) أيْش: أصلها أيُّ شيء، فاختصرتْها العَرَبُ لكثْرَة الاستعمال.
(٣) « سير أعلام النُّبلاء »للذَّهبيِّ (٧/٢٠٨).
(٤) الإزار : ثوب يحيط بالنِّصْف الأسْفَلِ مِنَ البَدَن، والجمع أُزُر.
(٥) البُرْد - بالضمِّ -: كساء مُخَطَّط يلتحف به ، وجمعه برود، وأبْراد.
(٦) المآثر : الأعمال العظيمة المتوارثة ، مفردها مأْثُرة .
(٧) المناقب : الخصال الحميدة، مفردها منقَبَة .

التَّفَسُّحُ في المَجَالِسِ

مِمَّا يزرع لك المودَّة والمحبَّة في قلب أخيك التَّفسُّحُ في المجالس ، بل ذلك أَدَبٌ من الله لعباده ، قال الله – سبحانه وتعالى – : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ** ﴾ [المجادلة : ١١] .

قال الشَّيخ ابنُ سَعْديٍّ – رحمه الله – في تفسير هذه الآية : « هذا أَدَبٌ من الله لعباده المؤمنين ، إذا اجتمعوا في مجلسٍ من مجالس مجتمعاتهم، واحتاج بعضُهُمْ – أو بعضُ القادمين عليهم – للتَّفسُّح له في المجلس ، فإنَّ من الأدب أن يفسحوا له تحصيلاً لهذا المقصود ، وليس ذلك بضارٍّ للفاسح شيئاً ، فيحصل مقصودُ أخيه من غير ضررٍ يلحقُهُ ، والجزاءُ من جِنْسِ العَمَلِ ، فإنَّ مَنْ فَسَحَ فَسَحَ اللهُ له ، ومن وسَّعَ لأخيه وسَّعَ اللهُ عليه »[١] .

ولا يقتصرُ التفسُّح على المجالس ، بل يدخلُ في ذلك التفسُّح في الطَّريق ، وسواء كنت ماشياً أو راكباً ، فتفسح لأخيك ، وتمنحه جبيناً طلقاً يفسحُ اللهُ لك في قلبه ، ويفسحُ لك في الرِّزْق ، والبَرَكَة ، والخَيْرات .

قال عُمَرُ بْنُ الخطَّاب – رضي الله عنه – : «مِمَّا يُصَفِّي لكَ وُدَّ أخيك: أنْ تَبْدَأَهُ بالسَّلامِ إذا لَقِيتَهُ، وأنْ تَدْعُوَهُ بأحبِّ الأسماء إليه، وأنْ تُوَسِّعَ له في المجالس»[٢] .

وقال الأَصْمَعِيُّ : « كان الأَحْنَفُ إذا أتاه إنسانٌ وسَّعَ له ، فإنْ لمْ يجدْ مَوْضعاً تَحَرَّكَ ؛ لِيُرِيَهُ أنَّهُ وَسَّعَ لَهُ »[٣] .

« ما هَزَّنِي ذِكْرُ أَشْجَانٍ[٤] وأَطْلَالٍ[٥] أو خَيْمَةٍ عَرَضَتْ ، أوْ مَعْهَدٍ بالي

---

(١) « تيسير الكريم الرحمن » (ص٨٤٦).
(٢) « أدب المجالسة » (ص٣١).
(٣) « عيون الأخبار » (٣٠٦/١).
(٤) **أشجان** : أحزان ، مفردها شَجَنٌ .
(٥) **الأطلال** : جمع طَلَلٍ ، وهو ما بقي شاخصاً من آثار الدِّيار، ويُجمع – أيضاً – على طُلُول .

لَكِنْ هُنَا المجْدُ والتَّاريخُ قَدْ جُمِعَا فاكْتُبْ بدَمْعِي آهَاتِي[١] وتَسْآلي[٢] » .

ومن اللَّطائف في هذا الباب ما ذكره أبو عُبَيْدَة مَعْمَر بْنُ المُثَنَّى قال: «ماتتْ لعُبَيْد بْنِ مَعْمَرٍ بنتٌ ، فَقَعَدَ في المأْتم في مسجده في سكَّة سبانوش ، فجاء عُبَيْدُ الله بن أبي بَكْرَة مُعزِّيًا ، وإذا الأشراف قد أخذوا مواضعَهُمْ ، فنظر إليه رجلٌ قد كان سَبَقَ إلى مَجْلسه مع الأشراف قد عَرَفَهُ ، فقام قائمٌ ، وجعل يقول له : هاهنا، حتى أخذ بيَدِه ، فأَقْعَدَهُ في مَجْلسه ، ثم ذهب فَقَعَدَ في أُخريات الناس ، فأمر عُبَيْدُ الله غلاماً كان معه أنْ يتعاهَدَهُ إلى قيامه ، فلمَّا قام دعا الرَّجل ، فقال : أتعْرِفُني ؟.

قال : نعم . قال : مَنْ أنا ؟.

قال : أنت عُبَيْدُ الله بْنُ أبي بَكْرَةَ صاحب رسول الله -ﷺ-.

قال: فما حَمَلَكَ على تَرْكِكَ مَجْلسَكَ[٣] لي ؟! .

قال : إجلالاً لوَلَدِ أصحابِ رسولِ اللهِ - ﷺ - وما أوجب اللهُ على أمثالي خصوصاً من التَّبجيل .

---

(١) **آهاتي** : أنَاتي ، مفردها آهة .

(٢) **التَّسآل** : السُّؤال .

(٣) **فائدة** : المنهيُّ عنه هو إقامةُ الرَّجلِ مِنْ مجلسه ، ثُمَّ الجلوس فيه؛ لحديث ابن عُمَرَ - رضي الله عنهما - أنَّ النَّبيَّ -ﷺ- : نَهَى أن يقامَ الرَّجل مِن مجلسه ، ويجلسِ فيه آخر، ولكن تفسَّحوا وتوسَّعوا . وكان ابن عمر يكرَه أنْ يقوم الرَّجلِ من مجلسه، ثمَّ يجْلِس مكانه .أخرجه البخاريُّ في الاستئذان (٦٢٦٩) و(٦٢٧٠) ، ومسلم في السَّلام (٢١٧٧) .

والحكمة من هذا النهي كما قال ابن أبي جمرةَ : « منع استنقاص حَقَّ المسلِمِ المقتضِي للضَّغائن ، والحثّ على التواضع المقتضِي للمودَّة ، وأيضاً فالناس في المباح كلُّهِم سواء، فمَن استحقَّ شيئًا استحقَّه، ومنِ استحقَّ شيئاً فأُخِذ منه بغير حقٍّ ، فهو غصب ، والغصب حرام » . «فتح الباري» (٣٣٣/١٢) .

قلتُ : لكن إذا تنازل صاحبُ المجلسِ عن مجلسه لغيره ، فلا مانعَ من الجلوس فيه ؛ لأنَّ الحقَّ لِهِ ، وقد تنازل عنه، وأمَّا ما أُثِرَ عن ابن عمر من كَرَاهَة ذلك ، فيقول النَّوويُّ -رحمه الله -: «فهذا ورع منه ، وليس قعوده فيه حَراماً ، إذا قعد ـ أو جلسَ ـ برضا الذي قام ، ولكنَّه تورَّع منه لاحتمال أن يكونَ الذي قام لأجله استحْيَا منه ، فقام عن غير طِيْبِ قلْبه ، فسدَّ هذا الباب ؛ ليسلمَ من هذا » . «شرح النَّوويّ على مسلم» (٣٣/١٤) . وذكره ابن حجرِ فيَ «الفتح» نقلاً عن النَّوويّ (٣٣٥/١٢) .

فقال له عُبَيْدُ الله : هل لك على أَنْ تُصَاحِبَنا إلى ضَيْعَةٍ [١]، نريدُ أنْ نصيرَ إليها؟.

قال : نعم .

قال : فَصَحبَهُ الرَّجلُ إلى تلك الضَّيْعَة في نهر مكحول ، ضَيْعَةٌ فيها ثلاثُمائة جَرِيْب [٢] نَخْلٍ ، وعلى وَجْهِ الضَّيْعَةِ قَصْرٌ بُني بآجُرٍّ [٣]، وجِصٍّ [٤]، وخَشَبِ سَاجٍ [٥].

فلمَّا دخل الضَّيْعَةَ ، أخذ عُبَيْدُ الله بيد الرَّجُلِ ، وجَعَلَ يدورُ به في تلك النَّخيل ، فقال للرَّجُل : كيف تَرَى هذه الضَّيْعَةَ ؟.

قال : تالله ، ما رأيتُ نخيلاً أَحْسَنَ منها ، ولا أَكْثَرَ ثَمَرَةً ، ولا أسرى ضَيْعَةً منها ! .

قال : قَدْ جَعَلْناها لك بما فيها من الخَدَمِ والآلة، نَبْعَثُ إليك بصَكِّها [٦].

قال : فاستطار الرجلُ فَرَحاً وبُكاءً ، وقال: أَنْعَشْتَني وأَنْعَشْتَ عِيالي [٧].

فقال عُبَيْدُ الله : وكَمْ لَكَ مِنَ العِيالِ ؟ .

قال : ثلاثَةَ عَشَرَ نَفْساً .

قال : فإنِّي قد جَعَلْتُ اسْمَ عِيَالِكَ في اسْمِ عِيالي، أُنْفِقُ عَليهم مَا عِشْتُ.

فقال له عُبَيْدُ الله : مَنْ تكونُ له مِثلُ هذه الضَّيْعَةِ يَحْتاج أَنْ يكونَ مَنْزِلُهُ

---

(١) **الضَيْعَةُ**: الأرض الواسعة ، جمعها ضياع .

(٢) **الجريب** : مِكْيال، وهو أربعة أَقْفِزة، والجمع أَجْرِبة، وجُرْبان.

(٣) **الآجُرُ** : الطِّينُ المَحْرُوق.

(٤) **الجَصُ** – بفتح الجيم وكسرها – : الجيرُ .

(٥) **السَّاجُ** : نَوْعٌ من الخَشَب، والجمع سِيجان .

(٦) **الصكُّ** – بالفتح –: الكتاب، والجمع أَصُكٌ، وصِكاك، وصُكوك.

(٧) **العِيال** : مَنْ يَعُولهم الرَّجل ، جمع عَيِّل .

في سرة البَصْرَة ، إذا صِرْنا إلى منزلنا فاغْدُ [١] علينا ، نأْمُرْ لك بشراء دارٍ تُشْبهُ هذه الضَّيْعَةَ ، ورَأْسِ مالٍ ، وخَدَمٍ تصلُحُ لدارِكَ ، تعيش بها — إن شاء الله — .

قال : فَغَدَا الرَّجُلُ عَلَيه ، فَأَمَرَ لَهُ بشراء دارٍ بخَمْسَةِ آلاف دينارٍ ، وأعطاه عَشْرَةَ الآف دينارٍ ، ودفع إليه صَكَّ الضَّيْعَةِ ، وأمر له بدابَّةٍ ، وبَغْلٍ ، وسَائِسٍ، وكسوةٍ ، وصرفةٍ » [٢].

« قـيَـامي — والإلَه — إلَيْكَ حَقٌّ ... وتَرك الحقِّ مـا لا يَسْـتَـقـيمُ
وهَلْ رجُلٌ لَهُ لُبٌّ [٣] وعَـقْـلٌ ... يرَاكَ له تَسـيـرُ، ولا يقُـومُ؟! » .

---

(١) غَدَا : ذهب صباحًا .
(٢) رواه ابْنُ حِبَّانَ في « روضة العقلاء» (ص٢٦٤ ، ٢٦٥) ، قال : حدَّثني أحمدُ بنِ محمَّدٍ القَيْسيُّ ، حدَّثني محَمَّدُ بن المُنْذِرِ ، حدَّثنا إسحاقُ بن إبراهيم القُرَشيُّ قال : سمعتُ أبا عُبَيْدَةَ مَعْمَرَ بن المُثَنَّى يقول: ... فذكره .
(٣) اللُّبُّ : العقْلُ الخالصُ من الشَّوائب ، جمعه أَلْبَابٌ، وأَلُبٌّ .

الهدية

للهديَّة أثرٌ عظيمٌ في كسب القلوب ، واستجلاب محبَّة الناس ، وقد حثَّ النَّبيُّ - ﷺ - على الإهداء بقوله : « **تَهَادَوْا تَحَابُّوا** »[١].

وحَثَّ على قَبُول الهديَّة، وعَدَم ردِّها، فعن عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله - ﷺ -: « **أَجِيبُوا الدَّاعِيَ ، ولا تَرُدُّوا الهَدِيَّةَ** »[٢].

قال ابنُ حِبَّان -رحمه الله -: «زَجَرَ النَّبيُّ - ﷺ - في هذا الخبر عن تَرْك قَبُول الهدايا بين المسلمين؛ فالواجب على المرء إذا أُهْدِيَتْ إليه هديَّةٌ أَنْ يَقْبَلَهَا ولا يَرُدَّها ، ثُم يُثِيبُ عليها إذا قدر ، ويشكر عنها ، وإنِي لأستحبُّ للنَّاس بعثَ الهدايا إلى الإخوان بينهم؛ إذ الهديَّة تُورثُ المحبَّةَ ، وتُذْهبُ الضَّغِينَةَ»[٣].

وقَال - أيضاً -: « فالعاقل يستعمل مع أهل زمانه لزوم بعث الهدايا بما قدر عليه لاستجلاب مَحَبَّتِهِمْ إيَّاه ، ويفارقه تركه مخافةَ بُغْضِهِم »[٤].

« إن الهَديَّةَ حُلْوَةٌ ... كَالسِّحْر، تَخْتَلِبُ القُلُوبَا
تُدْني البَعِيدَ مِنَ الهَوَى ... حَتَّى تُصَيِّرَهُ قَرِيبَا
وتُعِيدُ مُضْطَغِنَ العَدَا ... وَةِ - بَعْدَ بُغْضَتِهِ - حَبِيبَا
تَنْفي السَّخِيمَةَ[٥] مِنْ ذَوِي الشَّـ ... ـحْنَا، وتَمْتَحِقُ الذُّنُوبَا»[٦]

---

(١) أخرجه البخاريُّ في « الأدب المفرد » (٥٩٤) ، وأبو يَعْلَى في « المسند» عن أبي هريرة ، وحسَّنه الألبانيُّ لشواهده في « صحيح الجامع » (٣٠٠٤) ، وفي «إرواء الغليل» (١٦٠١) .

(٢) أخرجه البخاريُّ في « الأدب المفرد» (١٥٧) وأحمد في « المسند » (٤٠٤/١) ، وأبو يعلى في «المسند » (٢٨٤/٩)، وابن أبي شيبة في «المصنَّف » (٥٥٥/٦) ، وصحَّحه الألبانيُّ في « صحيح الجامع » (١٥٨).

(٣) « روضة العقلاء » (ص ٢٤٢) .

(٤) المرجع السابق (ص ٢٤٤).

(٥) **السَّخيمة** : الحقد، والجمع سخائم .

(٦) «روضة العقلاء» (ص٢٤٣).

فَحَرِيٌّ بالعاقل أن يقبلَ الهديَّةَ ولا يردَّها ؛ فإنَّ في ردِّها يحصلُ شَيْءٌ في النُّفوس ، فإن كان يرى أنَّ المُهْدِيَ قد تكلَّف له ، فعليه أن يُثيبَه بأحسنَ منها أو مثلها ، ولا يردَّها؛ فقد كان رسول الله - ﷺ - يقبلُ الهديَّة، ويُثيبُ عليها، فعن السَّيِّدة عائشةَ - ﵂ - قالت : « كانَ رسولُ الله - ﷺ - يَقْبَلُ الهديَّةَ، ويُثيبُ عَلَيْهَا [1] » [2].

« هَدَايَا النَّاسِ بَعْضِهِمُ لِبَعْضٍ ... تُوَلِّدُ فِي قُلُوبِهِمُ الوِصَالاَ
وَتَزْرَعُ فِي القُلُوبِ هَوَىً وَوُدّاً ... وَتَكْسُوكَ المَهَابَةَ وَالجَلاَلاَ
مَصَايِدُ لِلْقُلُوبِ بِغَيْرِ لَغَبٍ [3] ... وَتَمْنَحُكَ المَحَبَّةَ والجَمَالاَ» [4].

وعليك - أخي في الله - أَنْ تَقْبَلَ الهديَّةَ ، سواء قَلَّتْ أو كَثُرَتْ ، عَظُمَتْ أو حَقُرَتْ؛ فقد كان النَّبِيُّ - ﷺ - يقبلُ القليل كما يَقْبَل الكثير ، ويَقْبَلُ الحقير كما يقبل الخطير ، فعن أبي هريرة - ﵁ - عن النَّبي -ﷺ- قال: « **لَوْ دُعِيتُ إلى ذِرَاعٍ - أو كُرَاعٍ [5]- لأَجَبْتُ ، وَلَوْ أُهْدِيَ إلَيَّ ذِرَاعٌ - أو كُرَاعٌ - لَقَبِلْتُ** » [6].

قال الحافظ ابنُ حَجَرٍ -رحمه الله-: « وخَصَّ الذِّرَاعَ والكُرَاعَ بالذِّكْرِ؛ ليجمعَ بين الأمرين :

---

(١) **يُثيب عليها** : أي يُجازي المُهْدِيَ بهديَّة - أيضاً -.

(٢) أخرجه البخاريُّ في الهبة (٢٥٨٥) .

(٣) **اللَّغَبُ** : التَّعَب والإعياء ، يُقال : لَغُبَ يَلْغُبُ لَغَبًا ولُغُوبًا .

(٤) « روضة العقلاء» (ص٢٤٤) .

(٥) **الكُرَاعُ** : هو من الدَّابَّة ما بين الرُّكبة إلى السَّاق، يُذكَّر ويُؤنَّث ، وجمعه كُرُعٌ، وأَكْرُعٌ، ثُمَّ أَكارِعُ، وفي المَثَلِ: « أُعطِيَ العبدُ الكُرَاعَ ، فَطَمِعَ في الذِّراع » يُضْرَبُ لمن أُعْطِيَ شيئاً لم يكن يرجوه ، فطَمِعَ في أكثر منه .

(٦) رواه البخاريُّ في الهبة (٢٥٦٨) .

الحقير ، والخطير ؛ لأنَّ الذِّرَاعَ كانتْ أحبَّ إليه من غيرها ، والكُرَاع لا قيمةَ لَهُ » [(١)].

« جَاءَتْ سُلَيْمَانَ يَوْمَ العَرْضِ هُدْهُدَةٌ أَهْدَتْ لَهُ مِنْ جرادٍ ، كَانَ في فِيْهَا
وأَنْشَدَتْ بلسَانِ الحَالِ قَائِلَةً: إنَّ الهَدَايا على مِقْدَارِ مُهْدِيْهَا
لو كان يُهْدَى إلى الإنسانِ قيمَتُهُ لكانَ يُهْدَى لَكَ الدُّنيا وَمَا فِيهَا!» .

كما عليك – أخي في الله – ألاَّ تمتنعَ من الهديَّة لأخيكَ لاستقلالك واحتقارك الموجود عندك، فعنْ أبي هُرَيْرَةَ –رضي الله عنه– قال: قال رسول الله –صلى الله عليه وسلم–: « **يا نِساءَ المُسْلِماتِ ، لا تَحْقِرَنَّ جارَةٌ لجارَتِها، ولو فِرْسِنَ** [(٢)] **شاةٍ** » [(٣)] .

«هديَّتي تَصْغُرُ عَنْ هِمَّتي وهِمَّتي تَكْبُرُ عَنْ مَالي
فخَالِصُ الوُدِّ ومَحْضُ الصَّفا أَفْضَلُ مَا يُهْدِيْه أَمْثَالي» .

---

(١) « فتح الباري » (٥/٢٣٦).
(٢) **فِرْسِنُ الشَّاة** : ظِلْفُها .
قالَ الجوهريُّ : «الفِرْسِنُ من البعير كالحافِرِ من الدَّابَّة» . قال : « ورُبَّما اسْتُعِيرَ في الشاةِ» . «رياض الصالحين» (ص١٠٠) .
(٣) رواه البخاريُّ في الهِبَة (٢٥٦٦) .

التَّقْدِيرُ

لا شكَّ أنَّ تقديرك لشخصيَّة أيِّ إنسانٍ هو مفتاحُ الدُّخول إلى قلبه ، وتقديره لك هو بمثابة رَدِّ التَّحيَّة بمِثْلِهَا ، أو بأحسنَ منها ، وإلا ففاقد الشيءِ لا يُعْطيه ، والذي يفرض شخصيَّته على الآخرين ، ويَطْلُبُ منهم أن يُقَدِّرُوْهَا دُوْنَ أَنْ يُقَدِّرَهُمْ حقَّ التقدير - كَمَنْ يَطْلُبُ بالتُّراب تِبْراً [1] ، أو من الماءِ جَذْوَةَ [2] نارٍ، كما يقال :

«أيُّها المُنْكِحُ الثُّريَّا [3] سُهَيْلاً [4] عَمَّرَكَ اللهُ ! ، كَيْفَ يَلْتَقِيَانِ ؟!
هي شَامِيَّةٌ إذا مَا اسْتَقَلَّتْ [5] وسُهَيْلٌ إذَا اسْتَقَلَّ يَمَانِي » .

والإنْسَانُ بطَبْعه يُحبُّ أن يُقَابَلَ بالتَّقدير ، وكُلُّ مؤمنٍ حَرِيٌّ بالتقدير ، فنلاقيه بحَفَاوةٍ ، وطَلاقَة وَجْهٍ ، ونُدْخلُ السُّرورَ إلى قلبه ، ونُنَاديه بأحبِّ الأسماء إليه ، ونُحْسِنُ التَّعَاملَ معه ، ولا نَبْخَسُهُ حقَّهُ ، وخابتْ أُمَّةٌ وخَسِرَتْ إذا لم تَتَبَادل خُلُقَ التقدير، فَعَنْ أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قالَ رسولُ الله - صلى الله عليه وسلم -: «**بِحَسْبِ** [6] **امْرِئٍ مِنَ الشَّرِّ أَنْ يَحْقِرَ أخاه المسلمَ** » [7].

وأولى الناس بالتقدير مَنْ كان حظُّه من العلمِ ، والعملِ الصَّالحِ أَكْبَرَ؛ فعنْ

---

(١) **التِّبْرُ** : فتات الذَّهب قبل أن يُصَاغَ ويُضْرَبَ، الواحدة تِبْرَةٌ .
(٢) **الجَذْوة - بتثليث الجيم** - : الجمرة، والجمع جِذْيٌ - بتثليث الجيم - .
(٣) **الثُّريَّا** : سبعة كواكب منضمَّة بعضها إلى بعضٍ ، تشبه العنقود.
(٤) **سُهَيْل** : نَجْمٌ تنضجُ الفواكهُ عند طلوعه ، وينقضي القَيْظُ وشدَّةُ الحرِّ، ضوْءُهُ يضربُ إلى الحُمْرَة في اهتزازٍ واضطراب .
(٥) **الاستقلال** : الارتفاع .
(٦) أي : كافيه من الشرِّ احتقار المسلمين ، أي هذا هو الشرُّ كلُّه.
(٧) رواه مسلم في البرِّ والصِّلة (٢٥٦٤).

عُمَرَ بْنَ الخطَّاب – رضي الله عنه – أنَّ النَّبيَّ – ﷺ – قال: « **إنَّ الله – تعالى – يَرْفَعُ بهذا الكتاب أَقْوَاماً، وَيَضَعُ به آخَرِيْنَ** » [(١)] .

ومـن التقـدير تقديرُ طَلَبَة العلم؛ فقد قال رسول الله – ﷺ –: « **سيَأْتيكُمْ أقـوامٌ يَطْلُبـونَ العلْمَ، فإذا رَأَيْتُمُوْهُمْ فَقُولُوا لَهُمْ: مَرْحَباً بوصيَّةِ رسولِ الله وأَقْنُوهُمْ** [(٢)] » [(٣)].

« اطْلُبِ الْعِلْمَ وَحَصِّلْهُ ، فَمَنْ يَعْرِفِ المَقْصُودَ يَحْقِرْ مَا بَذَلْ
لا تَقُلْ : قَدْ ذَهَبَتْ أَرْبَابُهُ كُلُّ مَنْ سَارَ عَلَى الدَّرْبِ وَصَلْ
في ازديادِ العِلْمِ إرغامُ العِدَا وجمالُ العِلْمِ إصلاحُ العَمَلْ » .

ومن التقدير : تقدير الصغير لمن هو أكبر منه سِنّاً ، أو أكثر منه فَضْلاً، فإن ابن عمر لمَّا عرف جواب سؤال رسول الله – ﷺ – عن الشجرة التي تُشبه المؤمنَ لمْ يُجبْ ، يقول : « فَأَرَدْتُ أَنْ أَقُوْلَ : هي النَّخْلَةُ ، فإذا أنا أصغرُ القوم، فسكتُّ » [(٤)].

« سَعَى سَعْيَهُمْ قَوْمٌ ، فَلَمْ يُدْرِكُوْهُمُو وَمَا قَصَّرُوا عندَ اللَّحَاق ، ولَمْ يَأْلُوا
ولكنْ لَهُمْ سَبْقُ الجَلالَةِ والْعُلا فجاءَ لَهُمْ مِنْ كُلِّ ناحيةٍ فَضْلُ» .

والكبير في قومه يُقَابَلُ بالتقدير لقول رسول الله – ﷺ –: « **إذا أَتَاكُمْ كَرِيْمُ قَوْمٍ فَأَكْرِمُوه**» [(٥)].

---

(١) رواه مسلم في فضائل القرآن (٨١٧) .
(٢) **أَقْنُوهُم** : أي علّموهم وأفتوهم.
(٣) رواه الترمذيُّ في العلم (٢٦٥١) ، وابنُ ماجَة – واللّفظ له – في السُّنَّة (٢٤٧) عن أبي سعيد الخدري ، وحسّنه الألبانيُّ في « صحيح الجامع » (٣٦٥١) ، وفي « الصَّحيحة » (٢٨٠) .
(٤) رواه البخاريُّ – واللفظ له – في العلم (٧٢) ، ومسلم في صفات المنافقين (٢٨١١) .
(٥) رواه ابن ماجة في الأدب (٣٧١٢) عن ابن عمر ، وحسّنه الألبانيُّ في « صحيح ابن ماجة » (٢٩٩١) ، وفي «صحيح الجامع» (٢٦٩) ، وفي « الصحيحة » (١٢٠٥) .

وقال رسول الله – ﷺ – : « **لَيْسَ منّا**[١] **مَنْ لَمْ يُجِلَّ كَبِيْرَنَا ، وَيَرحَمْ صَغْيَرنا، وَيَعْرِفْ لِعَالمِنَا حَقَّهُ** »[٢] .

وحتى لو كان الكبير في قومه لا يستحقُّ التقدير ، فهو يستحقُّ التقدير الشكلي لمصلحة التآلف ، كما كان من مخاطبة رسول الله – ﷺ – لِهِرَقْلَ بـ« **عظيمِ الرُّومِ** »[٣].

يقول ابن حجرٍ – رحمه الله – : « لم يُخله من إكرامٍ لمصلحة التألف »[٤].

فعليك – أخي في الله – بخُلُق التقدير ، يحبُّك النَّاسُ ، بل وتملك قلوبَهُم.

---

(١) قال بعضُ أهل العلم : معنى قول النَّبيِّ – ﷺ –: « **ليس منَّا** » يقول : ليس من سُنَّتِنا ، ليس من أدبنا. وكان سفيانُ الثَّوريُّ يُنكر هذا التفسير : ليس مِنَّا : ليس مِثْلَنَا.
قلت :ولله درُّ الثَّوريِّ فقيهاً ! ، فما أبعد هذا التفْسير عنِ الحَقِّ ! ، فهل مَنْ يُجلُّ الكبيرَ ، ويرحمُ الصَّغيرَ، ويعرفُ للعالم حَقَّه – يُماثل الرَّسول – ﷺ – وصَحْبَه ؟!.
(٢) رواه أحمد في « المسند » ، والحاكم في « المستدرك » عن عُبادة بن الصَّامتِ، وحسَّنه الألبانيُّ في « صحيح الجامع » (٥٤٤٣).
(٣) رواه البخاريُّ في بَدْء الوحي (٧) ، ومسلمٌ في الجهاد (١٧٧٣).
(٤) « فتح الباري » (١/٣٨).

التواضع

التواضع – في حقيقته –: هو بذل الاحترام ، والعطف ، والتقدير لمن يستحقُّه [١] .

وهو سبيل لاكتساب القلوب ، والرِّفعةِ في الدُّنيا والآخرة ؛ فعن أبي هريرة – رضي الله عنه – قال : قال رسول الله – ﷺ – :

« **ما زَادَ اللهُ عَبْدَاً بِعَفْوٍ إلاَّ عِزّاً ، ومَا تَوَاضَعَ أَحَدٌ للهِ إلاَّ رَفَعَهُ اللهُ** » [٢].

قال النَّوويُّ – رحمه الله – في شرحه لهذا الحديث: «**وما تواضع أحَدٌ للهِ إلاَ رفَعَهُ** » : « فيه وجهان :

أحدهما – يرفعه الله في الدنيا ، ويُثبت له – بتواضعه – في القلوب منزلةً، ويرفعه الله عند الناس ، ويجِلُّ مكانه .

والثاني – أن المراد ثوابه في الآخرة، ورفعه – بتواضعه – في الدنيا» [٣].

وقال ابن الحاج –رحمه الله–: «مَنْ أراد الرِّفعة فليتواضعْ لله – تعالى –؛ فإن العِزَّةَ لا تقع إلا بقدر النُّزول ، ألَا ترى أن الماء لمَّا نزل إلى أصل الشجرة، صعد إلى أعلاها ، فكأنَّ سائلاً سأله : ما صعد بك هنا – أعني في رأس الشجرة – ، وأنت تحت أصلها ؟!. فكأن لسان حاله يقول : مَنْ تَوَاضَعَ لله رَفَعَهُ » [٤].

---

(١) انظر « رسائل الإصلاح » (١٢٧/١) .
(٢) رواه مسلم مع شرح النَّووي (١٤١/٦) .
(٣) « شرح النَّووي على صحيح مسلم » (١٤٢/٦) .
(٤) « المدخل » لابن الحاج (١٢٢/٢) .

وقال ابن المُقفَّع :

« إن استطعتَ أن تضعَ نفسَكَ دُون غايتك في كُلِّ مجلسٍ، ومقامٍ ومقالٍ، ورأيٍ وفعلٍ – فافعل؛ فإنَّ رفعَ النَّاسِ إيَّاك فوقَ المنزلة التي تَحُطُّ إليها نفسَكَ، وتقريبهم إيَّاك إلى المجلس الذي تباعدتَ منه، وتعظيمهم من أمرك ما لم تُعَظِّمْ، وتزيينهم من كلامك ورأيك وفعلك ما لم تُزَيِّنْ – هو الجمالُ» [1].

« تَوَاضَعْ تَكُنْ كالنَّجْمِ لاَحَ [2] لِنَاظِرٍ عَلَى صَفَحَاتِ المَاءِ ، وهوَ رَفِيعُ
وَلا تَكُ كَالدُّخَانِ يَعْلُو بنَفْسِه إلى طَبَقَاتِ الجَوِّ ، وهُوَ وَضِيعُ» .

وللتواضع حَدٌّ ، إذا جاوزه كَانَ ذُلاًّ ومهانةً ، ومن قصَّر عنه انحرف إلى الكِبْر.

قال ابنُ قدامةَ المقدسيُّ – رحمه الله –:

« واعلم أن هذا الخُلُقَ كسائر الأخلاق ، له طَرَفَان ووسط : فَطَرَفُهُ الذي يميل إلى الزيادة يُسمَّى تكبُّرًا ، وطَرَفُهُ الذي يميل إلى النُّقصان يسمَّى تخسُّساً ومذلَّةً ، والوسط يُسَمَّى تواضعاً، وهو أن يتواضعَ من غيْر مذلة» [3].

والتواضع يُثمر المحبَّةَ ، كما قيل : « ثَمرَةُ القناعة الرَّاحةُ ، وثَمَرَةُ التواضعِ المحبَّةُ» [4] .

فاحرص – أخي – على هذا الخُلُق ؛ فهو مفتاحٌ – مؤكَّدُ النتَّيجة – لفتح كثيرٍ من القلوب ، ما من ذلك بُدٌّ.

«دَنَوْتَ تَوَاضُعاً ، وعَلَوْتَ مَجْداً فَشَأْنَاكَ انْخِفَاضٌ وارْتِفَاعُ
كَذَاكَ الشَّمْسُ تَبْعُدُ أَنْ تَسَامَى [5] ويَدْنُو الضَّوْءُ مِنْهَا والشُّعَاعُ » .

(١) «الأدب الصغير والأدب الكبير» (ص١١٨، ١١٩) .
(٢) لاَحَ : بَدَا وظهر .
(٣) « مختصر منهاج القاصدين » (ص٢٥٤).
(٤) « غذاء الألباب » (٢/٢٣٢).
(٥) تَسامَى: تفاخر.

حفظ اللسان

لا شكَّ أنَّ مَنْ يحفظ لسانَه عمَّا حرَّم اللهُ ورسولُهُ - ﷺ - تُحبُّه القلوبُ، وتهفو إلى مثْله النُّفوسُ.

وهل مَنْ يُطْلِقُ لسانَهُ في أعراضِ النَّاس ، ويَخوض في القول الباطل: من شَهادَة الزُّورِ ، والكَذِبِ ، والغِيْبَةِ ، والنَّميمةِ ، والفاحشِ من القول - ترتاحُ له القلوبُ ؟! .

وهل من يُفْشي أسرارَ الناس، ويَلْتَقط هَفَوَاتهم، ويتصيَّدُ سَقَطَاتِهم - تعشقُهُ قلوبُهم ؟! .

كلاَّ ، هذا لا يكون حتَّى يعود الحليبُ إلى الضَّرْعِ ، أو حتَّى يَلِجَ الجَمَلُ في سَمِّ الخياطِ [١]! .

فإذا أردت أن تُحبَّك قلوبُ النَّاس ، فاحفظْ لسانك إلاَّ من الخيرِ، فقد قال رسول الله - ﷺ - : « **فكُفَّ لسانَكَ إلا مِنَ الخيرِ** » [٢].

أخي ، لم يقتصر الأمر على حبِّ الناس لك ، ما حفظت لسانك إلا من الخير ، بل إنَّ الرسول - ﷺ - قد ضَمِنَ الجنَّةَ لمن صان لسانَهُ وفَرْجَهُ ، فعن سَهْلِ ابْنِ سَعْدٍ - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله - ﷺ -: « **مَنْ يَضْمَنْ لي ما بَيْنَ لَحْيَيْهِ** [٣] ، **وما بَيْنَ رِجْلَيْهِ** [٤] ، **أَضْمَنْ لَهُ الجَنَّةَ** » [٥].

---

(١) **سَمّ الخياط - بفتح السّين وضمّها -**: أي ثُقْب الإبْرَة.

(٢) مسند أحمد (٢٩٩/٤) ، ونقل الحافظ ابن حجرٍ عن ابنِ حِبَّانَ تصحيحه «الفتح» (٣٠٩/١١).

(٣) هو اللِّسان . **واللَّحْيان - بالفتح -** : العظمان اللَّذان تنبتُ عليهما الأسنان، والجمع أَلْحٍ، ولُحِيٌّ على فُعُولٍ .

(٤) هو الفرج.

(٥) رواه البخاريُّ في الرِّقاق (٦٤٧٤).

وأخبر – ﷺ – أنَّ المرءَ قد يتكلَّم بكلمةٍ تُوْبِقُ دُنياه وآخرَتَهُ ، وتكون سبباً في السَّخَطِ ، وقد يقول كلمةً من الخير تكون سبباً في الرِّفعة والسَّعادة ، فعنْ أبي هريرة – رضي الله عنه – عن النَّبيِّ – ﷺ – قال : « **إنَّ العَبْدَ ليَتكَلَّمُ بالكلمة منْ رِضْوان الله، لا يُلْقي لَهَا بالاً ، يَرْفَعُهُ اللهُ بها دَرجَاتٍ ، وإنَّ العَبْدَ ليَتَكَلَّمُ بالكلمةِ منْ سَخَطِ الله ، لا يُلْقي لها بالاً، يَهْوِي بهَا في جَهَنَّمَ** » [1].

أخي ، تالله، لا أحدَ يتربَّعُ على قلوب المسلمين ، حتَّى يَسْلَمُوا من لسانه ويده ، وقد سُئِلَ رسولُ الله – ﷺ –: « أَيُّ الإسلام أَفْضَلُ؟ » . قال : « **مَنْ سَلِمَ المُسْلِمُوْنَ منْ لِسَانه وَيَده** » [2].

أخي ، ألا تطمع أن تكونَ من ذَوي الإسلام الأفضل ، بأنْ تحفظَ لسانَكَ من التَّسرُّع في الكلام ، وتتدبَّرَ وتتفكَّرَ قَبْلَ إخراجِ الكلمةِ ، فإن ظهرتْ مصلحةٌ تكلَّمْتَ، وإلا أمسكتَ ، والسلامة لا يعدلها شيء ، وقد قال رسول الله – ﷺ – : « **منْ حُسْنِ إسْلامِ المَرْءِ تَرْكُهُ مَا لاَ يَعْنيْه** » [3].

وقال –ﷺ–: « **إذا قُمْتَ إلى صَلاَتكَ ، فَصلِّ صَلاَةَ مُوَدِّعٍ ، ولا تكَلَّمْ بكلامٍ تَعْتَذِرُ مِنْهُ ، وأَجْمِعِ الإياسَ مِمَّا في أَيْدِي النَّاسِ** » [4].

---

(١) رواه البخاريُّ في الرِّقاق (٦٤٧٨) . قال الحافظ في «الفتح» (٣١١/١١) : « «**لايُلقي لها بالاً** » : أي لا يتأمَّلها بخَاطِرِه ، ولا يتفكَّر في عاقِبتها، ولا يَظنُّ أنها تؤثِّر شيئاً» .

(٢) رواه البخاريُّ في الإِيمان (١١) ، ومسلمٌ في الإيمان (٤٢) عن أبي مُوسَى الأَشْعَريِّ.

(٣) رواه التِّرمذيُّ في الزُّهْدِ (٢٣١٧) ، وابن ماجَة في الفتن (٣٩٧٦) عن أبي هريرة، وصحَّحه الألبانيُّ في « صحيح ابن ماجَة » (٣٢١١) ، وفي « صحيح الجامع » (٥٩١١) .

(٤) رواه ابن ماجَة في الزُّهْد (٤١٧١) ، وأحمد في « المسند » (٤١٢/٥) عن أبي أيُّوبَ . انظر «صحيح ابن ماجَة » (٤٠٥/٢) ، وصحَّحه الألبانيُّ في « صحيح الجامع » (٧٤٢) ، وفي « الصَّحيحة » (٤٠١) .

وما أجمل ما قيل في حفظ اللسان :

« يُصَابُ الفَتَى مِنْ عَثْرَةٍ بلسَانه   ولَيْس يُصَابُ المَرْءُ مِنْ عَثْرَةِ الرِّجْلِ
وعَثْرتُه مِنْ فِيْهِ ترمي بِرأْسِه   وعَثْرَتُه في الرِّجْل تبْرَا عَلى مَهْلِ»[1].

وقال آخرُ :

« تَعَاهَدْ لسَانَكَ ، إنَّ اللِّسَانَ   سَرِيْعٌ إلى المَرْءِ في قَتْله
وهذا اللِّسَانُ بَرِيدُ[2] الفُؤَادِ   يدُلُّ الرِّجَالَ عَلَى عَقْلِه »[3].

وقال آخرُ :

«احفظْ لسَانَكَ أيُّها الإنْسَانُ   لا يَلْدَغَنَّكَ، إنَّهُ ثُعْبَانُ
كَمْ في المقَابِرِ مِنْ قَتِيلِ لسَانِه   كَانَتْ تَهَابُ لقَاءَهُ الشُّجْعَانُ!»[4].

(١) «المحاسن والمساوئ» (ص٤٢٨) .
(٢) **بريد** : رسول.
(٣) المرجع السابق (ص٤٢).
(٤) «جواهر الأدب» (ص٧١٨) .

الاقتصار على الخير من الكلام

لكي تحبَّك قلوبُ النَّاس؛ عليك بالاقتصار على الخير من الكلام ؛ فكثْرَةُ الكلام مذهبةٌ للهَيبة والوقَار ، مَدْعَاةٌ لكثْرَة الأخطاء ، وطُول الحساب ، ومَنْ كثُرَ كلامُهُ ملَّهُ الناسُ ، وأعرضوا عن حديثه ، فلا يَشْتهونه غالباً .

وقد حثَّنا اللهُ – سبحانه وتعالى – على الخير من الكلام ، وترك ما سوَى ذلك، قال الله – سبحانه وتعالى – : ﴿ **لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا** ﴾ [النساء : ١١٤].

وإلى ذلك أرشد نَبيُّنا – ﷺ – ، ففي الصحيحين من حديث أبي هريرة – رضي الله عنه – قال : قال رسول الله – ﷺ – : « **مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بالله ، واليومِ الآخرِ ، فَلْيَقُلْ خيْراً، أو لِيَصْمُتْ** » [١].

« تكلَّمْ ، وسَدِّدْ ما اسْتطَعْتَ، فإنَّما كَلامُكَ حَيٌّ ، والسُّكُوتُ جَمَادُ
فَإنْ لَمْ تَجِدْ قَوْلاً سَدِيْداً تَقُولُهُ فَصَمْتُكَ عَنْ غَيْرِ السَّدَادِ سَدَادُ»[٢].

فعليك – أخي في الله – بأنْ تُقَلِّلَ من الكلام مادام مفهوماً ، واخْتَرِ المفيدَ والنَّافعَ منه ، ودَعِ الحَشْوَ والإطنابَ ؛ فقد « كان – كما تقولُ السَّيِّدةُ عائشةُ رضي الله عنها – رسولُ الله –ﷺ– يُحَدِّثُ حديثاً ، لو عَدَّهُ العَادُّ لأَحْصَاهُ» [٣].

---

(١) رواه البخاريُّ في الرقاق (٦٤٧٥) ومسلمٌ في الإيمان (٤٧).
(٢) « أدب الدُّنيا والدِّين» (ص٢٧٩).
(٣) رواه البخاريُّ – واللَّفظ له – في المناقب (٣٥٦٧) ، ومسلمٌ في الزُّهْد (٢٤٩٣).

قال الزَّمَخْشَـرِيُّ : « خَيْرُ الألْسُنِ المخزونُ ، وخيرُ الكلامِ الموزونُ ؛ فحدِّثْ – إنْ حدَّثْتَ – بأفضلَ من الصَّمت ، وَزِنْ حديثَكَ بالوَقَارِ ، وحُسْنِ السَّمْت ، إنَّ الطَّيْشَ في الكلام يُتَرجِمُ عن خفَّة الأحلامِ ، وما دخلَ الرِّفقُ في شيءٍ إلاَّ زَانَه، وما زانَ المُتَكَلِّمَ إلاَّ الرَّزانَةُ » [١].

وقال القاسميُّ : « كلامُ الإنسانِ بيانُ فَضْلِه ، وتُرْجُمانُ عَقْلِه ؛ فَاقْصُرْهُ عَلَى الجميلِ ، واقتصرْ منهُ على القليلِ » [٢].

« خَيْرُ الكَلامِ قَلِيْلُ ... عَلَى كَثِيْرٍ دَلِيْلُ

والعِيُّ مَعْنًى قَصِيْرٌ ... يَحْوِيهِ لَفْظٌ طَوِيلُ» [٣].

وأَخْتِمُ هذا البابَ بشروطٍ لمن أراد السلامة من عُورِ الكلامِ [٤] ، ذكرها الماوَرْدِيُّ –رحمه الله– فقال : « واعلمْ أنَّ للكلامِ شروطاً ، لا يَسلمُ المتكلِّمُ من الزَّلَلِ إلا بها ، ولا يَعْرَى [٥] من النَّقْصِ إلاَّ بَعْدَ أَنْ يَسْتَوْفِيَهَا ، وهي أربعةٌ :

فالشَّرطُ الأوَّل – أن يكون الكلامُ لداعٍ يدعو إليه ، إمَّا في اجتلاب نَفْعٍ، أو دَفْعِ ضَرَرٍ.

والشَّرط الثَّاني – أن يأتيَ به في مَوْضعه ، ويتوخَّى به إصابة فرصته .

والشَّرط الثَّالثُ – أنْ يقتصرَ منه على قَدْرِ حاجته.

والشَّرط الرَّابعُ – أن يتخيَّرَ اللَّفظ الذي يتكلَّم به » [٦].

---

(١) « أطواق الذَّهب » للزَّمخشريِّ (ص ٨٩) .

(٢) « جوامع الأدب » للقاسميِّ (ص ٦) .

(٣) « بهجة المجالس » (٦١/١) ، و « أدب الدُّنيا والدِّين» (ص ٢٨١) .

(٤) عُور الكلام: سقطاته، والمفرد عَوْراء.

(٥) يعْرَى : يخلو.

(٦) « أدب الدُّنيا والدِّين» (ص٢٧٥) .

«وكائنْ [١] تَرَى مِنْ صاحبٍ لَكَ مُعْجِبٍ زِيَادَتُهُ أو نَقْـصُـهُ في التَّكَلُّمِ
لِسَانُ الفَتَى نِصْفٌ ، ونِصْفٌ فُؤَادُهُ فَلَمْ يَبْقَ إلاَّ صُورَةُ اللَّحْمِ والدَّمِ » [٢].

---

(١) **كائنْ** : لُغَة في كَأَيِّنْ الَّتي بمنزلة كَمْ الخَبَرِيَّة الدَّالَّة على تكثيرِ المعدود .
(٢) المرجع السابق (ص٢٧٦).

حُسْنُ الاستماع

إذا أردت أن تسلكَ أقصرَ طريقٍ إلى قلوب الناس ، فأحسنِ الاستماع لحديثهم إذا حدَّثوك ، وذلك بالأُذنين ، وطرف العين ، وحضور القلب ، وإشراقة الوجه ؛ فإن إقبالَك على مُحَدِّثك دليلٌ على ارتياحك لمجالسته ، وتقديرك لشخصيَّته ، وشَغَفكَ بحديثه ، وعظماء الرجال يقضون هذا الحقَّ ، إلا إذا كان هناك خطأٌ ، فإنهم يُرشدون إلى الصواب بأجمل عبارةٍ ، وألطف إشارةٍ.

قال ابنُ عبَّاسٍ - رضي الله عنهما - : « لجليسي عليَّ ثلاثٌ: أنْ أرْميَه بطَرْفي [1] إذا أقْبلَ، وأنْ أُوسِّعَ له في المجلسِ إذا جَلَسَ، وأنْ أُصْغيَ إليه إذا تَحَدَّث » [2].

وقال سعيدُ بْنُ العاص : « لجليسي عليَّ ثلاثٌ : إذا أقْبَلَ وسَّعْتُ له ، وإذا جلس أقبلتُ إليه ، وإذا حَدَّثَ سمعتُ منه » [3].

وقال أبو عبَّادٍ : « للمحدِّث علَى جليسه السَّامعِ لحَديثه أنْ يَجْمَعَ له بَالَهُ، ويُصْغيَ إلى حديثه ، ويَكْتُمَ عليه سرَّهُ ، ويَبْسُطَ له عُذْرَهُ » [4].

وقال ابنُ المُقفَّع : « تَعَلَّمْ حُسْنَ الاستماعِ ، كما تتعلَّمُ حُسْنَ الكلامِ ، ومن حُسْنِ الاستماعِ إمهالُ المتكلِّم حتَّى ينقضيَ حديثُهُ ، وقلَّةُ التَّلفُّتِ إلى الجواب ، والإقبالُ بالوجْهِ والنَّظرَ إلى المتكلِّم ، والوَعْيُ لما يقولُ » [5] .

---

(١) **الطَّرْف** : البَصَرُ .

(٢) «عيون الأخبار» (١/٣٠٧) .

(٣) «المنتقى من مكارم الأخلاق» انتقاء أبي طاهرٍ السِّلفيِّ (ص٥٤) .

(٤) «زهرة الأدب» (١/١٩٥) .

(٥) «الأدب الصغير ، والأدب الكبير» (ص١٢٩ ، ١٣٠) .

«إنْ أنْتَ جَالَسْتَ الرِّجالَ ذَوي النُّهَى [١] فَــاجْلسْ إليــهم بالكَمَــال مُــؤَدَّبَا
وَاسْــمَعْ حَــديْثَــهُمُ إذا هُمْ حَــدَّثُوا وَاجْعَلْ حَديْثَكَ -إنْ نَطَقْتَ- مُهَذَّبًا» [٢].

وذكر الشعبيُّ قوماً ، فقال : « ما رأيتُ مِثْلَهُمْ أشدَّ تناوباً في مجلسٍ ، ولا أَحْسَنَ فَهْمَاً مِنْ مُحَدِّثٍ » .

«قَوْمٌ إذا اسْتخصمُوْا كَانُوْا فَراعِنَةً يَوْمَاً ، وَإِنْ حُكِّمُوْا كَانوا مَوازِيْنَا
إذا دعَوْا جَاءَتِ الدُّنيا مُصدِّقَةً وإنْ دَعَوْا قَالَتِ الأيَّامُ: آمِينا» .

وترك الإصغاء للمتحدِّث سوءُ أدبٍ، وقلَّةُ مُروءةٍ ؛ لما في ذلك من استجلابِ الضَّغينة ، واحتقارِ المتحدِّث ، ويكون بإجالة النظر هنا وهناك ، أو بقراءة كتابٍ ، أو الإشاحة بالوجه ، أو بالقيام عنه قبلَ أن يُكْملَ حديثَه ، أو متابعة مُتَحَدِّثٍ آخرَ ، أو مقاطعته ، أو منازعتِه الحديثَ ، ونَحْوِ ذلك ، وهذا الصَّنيع لا يحسن أبداً ، بل هو بابٌ من أبواب إثارة الحقد ، وبذر الشرِّ .

قال معاذُ بْنُ سَعْدٍ الأعورُ : « كنتُ جالساً عند عطاء بن أبي رباحٍ ، فحدَّثَ رجلٌ بحديثٍ، فعرَّض رجلٌ من القوم في حديثه، قال : فغضب، وقال: ما هذه الطِّباع ؟!، إنِّي لأَسْمَعُ الحديثَ من الرَّجل وأنا أعلمُ بِهِ ، فأُريه كأنِّي لا أُحسنُ منه شيئاً » [٣].

وقال الحسن : « إذا جالستَ فَكُنْ على أنْ تَسْمَعَ أَحْرَصَ منك على أنْ تقولَ ، وتعلَّمْ حُسْنَ الاستماعِ كما تتعلَّمُ حُسْنَ القولِ ، ولا تقطعْ على

---

(١) النُّهى : جمع نُهْيَة، وهي العقل، سُمِّيَ العَقْلُ نُهْيَةً؛ لأنَّهُ يَنْهَى صاحبه عن مُقارَفَةِ كُلِّ قبيحٍ .
(٢) « عيون الأخبار » (٣٠٧/١).
(٣) « روضة العقلاء » (ص٧٢).

أحَـدٍ حديثَهُ » [١].

وقال ابنُ المُقفَّع : « وإذا رأيت رجلاً يُحَدِّثُ حديثاً قد عَلِمْتَهُ ، أو يُخْبِرُ خَبَراً سَمِعْتَه فلا تُشارِكْهُ فيه ، ولا تتعقَّبْهُ عليه حرصاً على أنْ يَعْلَمَ النَّاسُ أنك قد علمتَهُ ؛ فإن في ذلك خِفَّةً ، وسوءَ أدبٍ ، وسُخْفاً » [٢].

وقال ابن عبد البرِّ - رحمه الله -: « ومن سوء الأدب في المجالسة أَنْ تقطعَ على جليسكَ حديثَهُ ، أو أنْ تَبْتَدِرَهُ إلى تمام ما ابتدأ به منه ، خَبَراً كان، أو شِعْراً، تُتِمُّ له البيتَ الذي بدأ به ؛ تُريه أنك أحفظُ له منه ، فهذا غايةٌ في سوءِ المجالسة، بل يجب أَنْ تُصْغِيَ إليه كأنك لم تسمعْهُ قطُّ إلا منه» [٣].

وقال ابْنُ سَعْديٍّ -رحمه الله-: « ومن الآداب الطَّيِّبة إذا حدَّثك المحدِّثُ بأمرٍ -دينيٍّ أو دُنْيَويٍّ - ألاَّ تُنازِعَهُ إذا كُنْتَ تَعْرِفُهُ ، بل تُصغي إليه إصغاءَ مَنْ لا يعرفه ، ولم يَمُرَّ عليه ، وتُريه أنك استفدْتَ منه ، كما كان أَلِبَّاء [٤] الرِّجال يفعلونه. وفيه من الفوائد : تنشيطُ المحدِّث ، وإدخالُ السُّرور عليه ، وسلامتُك من العُجْب بنفسك ، وسلامتُك من سُوءِ الأدبِ ؛ فإنَّ منازعةَ المحدِّثِ في حديثه مِنْ سُوْءِ الأَدبِ » [٥].

وما أجملَ قولَ أبي تمَّامٍ الطَّائيِّ :

«مَنْ لي بإنسانٍ إذا أَغْضَبْتُهُ ... وَجَهِلْتُ ، كانَ الحلْمُ رَدَّ جَوابه
وإذا جلستُ إلى المدامِ شَرِبْتُ مِنْ ... أَخْلاقِهِ ، وسَكِرْتُ مِنْ آدابه
وتَراهُ يُصْغي للحديثِ بِسَمْعِهِ ... وبِقَلْبِهِ ، ولَعَلَّهُ أَدْرَى بهِ؟!» [٦].

---

(١) « المنتقى من مكارم الأخلاق »(ص١٥٥) .
(٢) « الأدب الكبير والأدب الصغير » (ص ١٣٦) .
(٣) « بهجة المجالس »(١/٣٦) .
(٤) أَلِبَّاء : جمع لَبِيب ، وهو العاقل الحازم.
(٥) «الرياض الناضرة »(ص٥٤٨) .
(٦) « طرائق الحكمة »(١/٧٣) .

لزوم السكينة والوقار

الوَقَار يـُكسب صاحبَهُ المهابةَ وحُبَّ النَّاس، والوَقُورُ يُدركُ ما لا يُدركُهُ غيرُهُ من معاني العزِّ والشَّرف والرِّئَاسَة .

ويُعرّف الوَقَارُ بأنه: التأنّي في التَّوجُّه نَحْوَ المَطَالب [١] .

قال الجاحظ : « الوقَارُ: هو الإمسَاكُ عن فُضُولِ الكلامِ والعَبَث، وكَثْرةِ الإشَارة والحركة، فيما يستغني عن التَّحرك فيه، وقلَّة الغضب، والإصغاء عند الاستفهامِ، والتَّوقُّفِ عن الجوابِ، والتَّحفُّظ من التَّسرُّع، والمبَاكرة في جميع الأُمور» [٢] .

والرسول - ﷺ - يُحبُّ لأُمَّته التَّحلّي بخلق السكينة والوقار، حتَّى وهم في طريقهم إلى الصلاة؛ فعنْ أبي هريرة - رضي الله عنه - عن النَّبيِّ - ﷺ - : «**إذا سمعتمُ الإقامةَ فامشُوا إلى الصلاة، وعليكم بالسَّكينةِ والوقارِ** [٣] ، **ولا تُسرعوا، فما أدركتم فصلُّوا، وما فاتكم فأتمُّوا**» [٤] .

وأخبر أنه ما من نبيٍّ بعثه الله إلاَّ ورعى الغنم؛ وذلك لما يَئُولُ إليه من الرحمة والشَّفقة، واكتساب السكينة والوقار؛ فعن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله - ﷺ -: «**الفَخْرُ والخُيلاءُ في أصْحاب الإبِلِ، والسَّكينةُ والوقارُ في أهلِ الغنَم**» [٥] .

والوقار من آثار الحياء والحشمة ، قال بشير بن كَعْبٍ : «مكتوبٌ في

(١) «التعريفات» (٢٠٥) .

(٢) «تهذيب الأخلاق» (٢٢) .

(٣) **قال النوويُّ -يرحمه الله-** [كما في «فتح الباري» (١٣٩/٢)]: «الفرق بين السكينة والوقار: أنَّ السكينة هي التأنّي في الحركات، واجتناب العَبَث ، والوقارُ في الهيئة: كغضِّ البصر، وخفْضِ الصوت، وعدم الالتفات» اهـ .

(٤) البخاري (٦٣٦) واللفظ له، ومسلم (٦٠٢) .

(٥) البخاري (٤٣٨٨) واللفظ له، ومسلم (٥٢) .

الحكمة : إنَّ من الحياءِ وَقَارًا، وإنَّ من الحياءِ سكينةً» [١].

قالَ القُرطبيُّ - رحمه الله -: « إنَّ من الحياء ما يحملُ صاحبهُ على الوقارِ، بأَنْ يوقِّرَ غيره، ويتوقَّرَ هو في نفسه » [٢].

وممّا يعينك على اكتساب السكينة والوقار -بعد تقوى الله- :

١ - العلم والعمل به :

رَوَى أبو مسلمٍ الخَوْلانيُّ أنه دخل مَسْجِدَ حِمْصَ ، فوجد شابًّا بين ثلاثين كَهْلاً [٣] من الصَّحابة ، فإذا امترى القَوْمُ في شيءٍ ، أقبلوا عليه فسألوه، فقلت لجليسي : من هذا ؟ .

قال : مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ . فوقع له في نفسي حُبٌّ .

ثم قلتُ : والله، إنِّي لأُحِبُّكَ.

قال : فِيْمَ تُحِبُّنِي ؟ .

قلتُ: في الله - سبحانه وتعالى - .

قال : أَبْشِرْ إِنْ كُنْتَ صَادقاً ؛ سمعتُ رسولَ الله - ﷺ - يقولُ : « **قال الله - تعالى -: المُتَحَابُّونَ في جَلاَلي لَهُمْ مَنَابِرُ مِنْ نُورٍ ، يَغْبِطُهُمُ [٤] النَّبِيُّونَ والشُّهَدَاءُ** » [٥] [٦].

« إذا كان حُبُّ الهَائمين مِنَ الوَرَى ... بلَيْلَى وَسَلْمَى يَسْلُبُ اللُّبَّ والعَقْلا

فَمَاذَا عَسَى أَنْ يَصْنَعَ الهائِمُ الذي ... سَرَى قَلْبُه شَوْقاً إلى العَالَمِ الأَعْلَى ؟!» .

---

(١) البخاري (٦١١٧) .
(٢) «الفتح» (١٠/٥٣٨) بتصرف .
(٣) **الكَهْلُ من الرِّجال** : الَّذي جاوز الثَّلاثين، جمعه كُهُول .
(٤) **الغِبْطَة - بالكسر -**: أن تتمنَّى مِثْلِ حالِ المَغْبوط من غير أن تُريد زوالَها عنه، فليستْ بحسدٍ، ويقَال : غَبطه بما نال من باب ضرب.
(٥) رواه التِّرمذيُّ في الزُّهد (٢٣٩٠) ، وقال: « حَسَنٌ صحيحٌ » ، وأحمد في « المسندِ» (٥/٢٣٩) ، وصحَّحه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (٤٣١٢).
(٦) والمقصود أنَّ العلم هو الذي مكَّن للصحابي الجليل في القلوب، وأكسبَهُ السَّكينة والوقار ، وقد قال الحسن - رحمه الله- : «قد كان الرجل يطلب العلم، فلا يلبث أن يرى ذلك في تخشيه وهديه ولسانه وبصره وبره» «شعب الإيمان» (٨/٤٢٧) ، وقال مخرِّجه : رجاله ثقات .

ومن دُرر الصحابيِّ الجليل عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - قوله: «ينبغي لحامل القرآن أن يكونَ باكيًا محزونًا، حكيمًا سكينًا، ولا ينبغي لحاملِ القرآنِ أن يكون جافيًا، ولا غافلاً، ولا صخَّابًا، ولا صيَّاحًا، ولا حديدًا» [1].

وقال مالك بن أنسٍ - رحمه الله -: «حقٌّ على مَنْ طلب العلمَ أنْ يكونَ لَهُ وَقارٌ وسكينةٌ وخَشْيَةٌ، والعلمُ حسنٌ لمن رُزِقَ خَيْرَه» [2].

قلتُ: لله درُّه من إمامٍ يفعلُ ما يقولُ حتَّى قيل فيه:

«يدعُ الجوابَ، ولا يُراجعُ هيْبَةً والسَّائلونَ نَواكسُ الأذْقَانِ[3]
نُورُ الوَقَارِ، وعِزُّ سُلْطانِ التُّقَى فَهُوَ المَهيبُ وليس ذا سُلْطانِ» [4].

٢- لزومُ الصَّمْتِ:

لزوم الصمت إلا من حقٍّ توضِّحُه، أو باطلٍ تَدْحضُه، أو شيءٍ يَعْنيكَ أمْرُه.

قالَ بَعْضُ البُلَغاء: «الزم الصَّمْتَ؛ فإنه يُكْسِبُكَ صَفْوَ المحبَّة، ويؤْمِنُكَ سُوْءَ المَغَبَّة [5]، ويُلبسُكَ ثوبَ الوَقَارِ، ويَكْفيكَ مؤونةَ الاعتذارِ» [6].

وقالَ الأحنفُ بْنُ قَيْسٍ - رحمه الله -: «الصَّمْتُ أمانٌ مِن تحريفِ اللَّفظ، وعِصْمَةٌ مِن زَيْغِ المَنْطق، وسلامةٌ مِن فُضُولِ القَوْلِ، وهَيْبَةٌ لصاحبه» [7].

«إنْ كانَ يُعْجِبُكَ السُّكُوتُ، فَإنَّهُ قَدْ كَانَ يُعْجِبُ قَبْلَكَ الأخْيارَا
وَلَئِنْ نَدِمْتَ عَلَى سُكُوتِكَ مَرَّةً فَلَقَدْ نَدِمْتَ عَلَى الكَلامِ مِرَارَا
إنَّ السُّكُوْتَ سَلامَةٌ، ولَرُبَّمَا زَرَعَ الكَلامُ عَدَاوَةً وضِرَارَا» [8]

---

(١) «الفوائد» (١٤٧).
(٢) «حلية الأولياء» (٦/٣٢٠).
(٣) **نواكس الأذقان:** مُطأطئو الرُّءوس، والمفرد ناكس.
(٤) شرح حديث **«ما ذئبان جائعان»** (٧٨).
(٥) **المَغَبَّة:** العاقبة.
(٦) «أدب الدُّنيا والدِّين» (ص٢٧٥).
(٧) «روضة العقلاء» (ص٤٣).
(٨) المرجع السابق (ص٤٣).

لزوم المروءة

المروءةُ تبْعَثُ على إجلالِ صاحبِها ، وامتلاءِ القَلْبِ بمحبَّتِه ، والأَعْيُنِ بمهابتِه ، وهي جِماعُ الطُّرقِ الموصِلة إلى القلوبِ لاشتمالها على مكارمِ الأخلاقِ ، ومحاسنِ الآدابِ ، وكمالِ الرجولة (١) .

ومن الحكَم السَّائرة : « ذو المُروءة يُكْرَمُ وإنْ كان مُعْدماً (٢) ، كالأَسَد يُهَابُ وإن كان رَابضاً (٣) ، ومَنْ لا مُروءةَ له يُهَانُ وإن كان مُوسِراً ، كالكَلْبِ يُهَانُ وإن طُوِّقَ (٤) وحُلِّيَ بالذَّهب» (٥) .

وحقيقة المروءةَ –كما عرَّفها الجُرْجانيُّ– : هي قوَّةٌ للنَّفس ، مبدأٌ لصدورِ الأفعالِ الجميلة عنها ، المستتبعة للمدح شرْعاً ، وعَقْلاً ، وعُرْفاً (٦) .

قيل لسُفْيانَ بْنِ عُيَيْنَةَ : « قد اسْتَنْبَطْتَ منَ القرآن كُلَّ شيءٍ ، فأين المروءةُ؟» . فقال : « في قوله – تعالى – : ﴿ **خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ** ﴾ [الأعراف : ١٩٩] .

ففيه المروءةُ ، وحُسْنُ الأَدَبِ ، ومكارمُ الأخلاقِ ، فجمع في قوله – تعالى –: ﴿ **خُذِ الْعَفْوَ** ﴾ صِلَةَ القاطعين ، والعَفْوَ عن المُذْنبين ، والرفقةَ بالمؤمنين ، وغَيْرَ ذلك من أخلاق المطيعين .

---

(١) انظر تفصيل الحديث عن المروءة في كتابي « الأخلاق » . من مطبوعات دار الإيمان .
(٢) **مُعْدماً** : فقيراً .
(٣) **رَابضاً** : مقيماً ساكناً.
(٤) **طُوِّقَ** : لَبِسَ الطَّوقَ الذي يُوضع في العُنُق للزِّينة عادةً .
(٥) « المروءة وخوارمها » للشَّيخ مشهور بن حسن آل سليمان (ص ٤١) . وننصح باقتنائه ؛ فهو كتابٌ نافعٌ في بابه ، ولعلَّه لم يُؤلَّفْ مثْلُه في هذا الباب.
(٦) « التعريفات » للجُرْجانيِّ (ص١١١).

ودخل في قوله – تعالى – :﴿ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ ﴾ صِلَةُ الأرحام ، وتقوى الله في الحلال والحرام ، وغضُّ الأبصار ، والاستعدادُ لدار القرار .

ودخل في قوله – تعالى – :﴿ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾ الحضُّ على التَّخلُّق بالحِلْم، والإعراض عن أهل الظُّلم، والتَّنزُّه عن منازلة السُّفَهَاء، ومساواة الجهلة والأغبياء، وغير ذلك من الأخلاقِ الحميدةِ، والأفعالِ الرشيدة» [1].

وما أجمل ما قاله محمد حافظ إبراهيم :

« إنِّي لَتُطْرِبُني الخِلالُ [2] كَريمَةً ... طَرَبَ الغَريبِ بأَوْبَةٍ [3] وتَلاقِ
ويهُزُّني ذِكْرُ المُرُوءَةِ والنَّدى [4] ... بيْنَ الشَّمائِلِ [5] هِزَّةَ المُشْتاقِ» [6]

---

(١) « عين الأدب والسياسة » (ص١٣٢– ١٣٣) .
(٢) **الخِلال** : جمع خَلَّة – بفتح الخاء – وهي الصِّفة .
(٣) **أَوْبَة** : رجعة .
(٤) **النَّدى** : الجود والكرم .
(٥) **الشَّمائل** : الأخلاق ، مفردها شِمال .
(٦) «جواهر الأدب» لأحمد الهاشمي (ص٤٩٤ – ٤٩٥) .

المزاحُ المعتدلُ

المزاحُ سُنَّةٌ مشروعةٌ ، وخُلُقٌ يحبُّه كثيرٌ من النَّاس ، ومن أعظم وسائل التَّحبُّبَ إلى الناس، وهو الطريقُ السَّهْلُ إلى قلوبهم، وقد كان رسول الله -ﷺ- يداعب أصحابه ، فيُدْخِلُ السُّرورَ والبهجةَ إلى قلوبهم ، فعن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال : قالوا : « يا رسولَ الله ، إنَّك تداعبنا ؟! » . قال : «**إنّي لا أقولُ إلا حقّاً** [١] » وفي رواية : « **إنِّي لأُداعِبُكُمْ** » [٢].

وعن أنسٍ أنَّ رجلاً أتى النَّبيَّ -ﷺ- فقال: «يا رسولَ الله، احمِلْني». قال النَّبيُّ -ﷺ-: «**إنَّا حاملوكَ على وَلَد نَاقَة**» . قال: «وما أَصنَعُ بولَدِ النَّاقة؟!».

فقال النَّبيُّ - ﷺ - : « **وهَلْ تَلِدُ الإبلَ إلاَّ النُّوقُ** ؟!» [٣].

وقال أنس بنُ مالك - رضي الله عنه - : «إنْ كَانَ النَّبيُّ -ﷺ- لَيُخالِطُنا، حتَّى إنْ كَانَ لَيَقولُ لأخٍ لي صَغيرٍ : « **يا أبا عُمَيْرٍ ، ما فَعَلَ النُّغَيْرُ** ؟! » [٤] [٥].

وكان يلاعب زينب بنت أُمّ سَلَمَة ، ويقول : « **يا زُوَيْنِبُ ، يا زُوَيْنِبُ** » مراراً [٦].

وأيضاً كان -ﷺ- يُدْلِعُ لسَانَهُ للحَسَنِ بْنِ عليٍّ ، فيرى الصَّبيُّ حُمْرَةَ لسَانه فَيَهَشُّ إليه : أي يسرع إليه بعد أنْ يَعْجَب به [٧].

---

(١) **حقّاً** : صدْقاً .

(٢) رواه التِّرمذيُّ في البرِّ والصِّلة (١٩٩٠) ، وقال : « حَسَنٌ صحيحٌ » ، وأحمد في « المسند » ، والبغويُّ في « شرح السُّنَّة » (٢٦٠٢) وحسَّنه . وله شاهد بلفظ « إنّي لأَمْزَحُ ، ولا أقولُ إلا حقّاً » من حديث ابن عمر عند الطَّبَرانيِّ في « الكبير» ، ومن حديث أنسٍ عند الخطيب البغداديِّ . انظر «صحيح التِّرمذيِّ» (١٦٢١ - ٢٠٧٥) ، وصحَّحه الألبانيُّ في « صحيح الجامع » (٢٤٩٤) و(٢٥٠٩) ، وفي « الصَّحيحة » (١٧٢٦).

(٣) رواه أبو داود في الأدب (٤٩٩٨) ، والتِّرمذيُّ في البرِّ والصِّلة (١٩٩١) ، وقال : « حَسَنٌ صحيحٌ» وصحَّحه الألبانيُّ في « صحيح الجامع » (٧١٢٨).

(٤) ذكر القاضي عياض ستِّين فائدةً من فوائد هذا الحديث، لخَّصها ابنُ حجرٍ في «الفتح» (١٢/٢٢٧).

(٥) تقدَّم تخريجه في باب «التنادي بأحبِّ الأسماء» .

(٦) رواه الضياء من حديث أنسٍ، وصحَّحه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (٥٠٢٥) ، وفي «الصحيحة» (٢١٤١).

(٧) رواه البغويُّ ، وحسَّنه محقِّق «شرح السُّنَّة» (٢٦٠٣).

وعن صُهَيْبٍ قال : قَدِمْتُ على النَّبيِّ - ﷺ - وبين يديه خبزٌ وتمرٌ، فقال : « ادنُ فَكُلْ » . فأخذتُ آكلُ من التَّمر ، فقال النَّبيُّ -ﷺ-: «تأكُلُ تمراً وبك رَمَدٌ ؟! » . قال : فقلتُ : « إنِّي أَمْضَغُ من ناحيةٍ أخرى » . فتبسَّم رسولُ الله - ﷺ - [١].

وعن أُسَيْدِ بْنِ حُضَيْرٍ قال : بينما هو يُحَدِّثُ القومَ- وكان فيه مزاحٌ - بَيْنَا يُضحِكُهم، فطعنه النَّبيُّ - ﷺ - في خاصرته بعُودٍ، فقال: « أَصْبِرْني[٢]» فقال : « اصْطَبِرْ » . قال : « إنَّ عليكَ قميصاً، وليس عليَّ قَميصٌ » ، فرفع النَّبيُّ - ﷺ - عن قميصه ، فاحتضنه ، وجعل يُقبِّلُ كَشْحَه [٣]، قال : « إنَّما أَرَدْتُ هذا يا رسولَ الله » [٤].

وعن أنسٍ أنَّ رَجلاً من أهل البَادية كان اسْمُهُ زَاهِرَ بْنَ حرامٍ ، وكان يُهْدي للنَّبيِّ -ﷺ- الهديَّة من البادية ، فيجهزه رسولُ الله -ﷺ- إذا أراد أن يخرجَ ، فقال النَّبيُّ -ﷺ-: « إنَّ زاهراً بَاديَتُنَا ، ونَحْنُ حَاضِرُوْهُ » . قال : وكان النَّبيُّ - ﷺ - يُحبُّه ، وكان دميماً ، فأتاه النَّبيُّ - ﷺ - يوماً وهو يبيع متاعه، فاحتضنه من خلْفه وهو لا يُبْصِرُه ، فقال :

«أرْسِلْني، مَنْ هذا؟!». فالتفت، فعرف النَّبيَّ -ﷺ-، فجعل لا يألُو ما ألزق ظهره بصدر النَّبيِّ -ﷺ- حين عرفه، وجعل النَّبيُّ -ﷺ- يقول: «مَنْ يشتري العَبْدَ؟» . فقال: « يا رسولَ الله ، إذاً تجدَني كَاسداً». فقال الرسول -ﷺ-: « لكن عندَ الله لستَ بكاسدٍ » . أو قال : « لكنَ عندَ الله أنت غالٍ » [٥].

وعن عائشة - رضي الله عنها - قالت: رجع إليَّ رسولُ الله -ﷺ- ذات يوم من جنازة من البقيع، فوجدني وأنا أجد صداعاً، وأنا أقول: وارأساه!. قال: «بل أنا يا عائشة وارأساه» .

---

(١) حسَّنه الألبانيُّ في «صحيح ابن ماجة» (٢٧٧٦).
(٢) **أَصبرني** : أي أَقِدني ، ومكِّني من القِصاص منك .
(٣) **الكشح** : ما بين الخاصرة إلى الضِّلَع الخلْف .
(٤) رواه أبو داود في الأدب (٥٢٢٤) ، وصحَّحه الألبانيُّ في « صحيح أبي داود » (٤٣٥٢).
(٥) رواه الترمذيُّ في « الشمائل» ، والبغويُّ في « شرح السُّنَّة » (٣٦٠٤) ، وأحمد في « المسند » ، وصحَّحه الحافظ في « الإصابة » ، والألبانيُّ في « صحيح الجامع » (٢٠٨٧).

قال: «وما ضرّك لو متّ قبلي فغسّلتك وصليتُ عليك ودفنتك؟» قالت: لكأني بك - والله - لو فعلت ذلك لرجعت إلى بيتي فعرست فيه بعض نسائك، فتبسم رسول الله - ﷺ -»[١].

وعن الحسن قال: أتت عجوز النّبيّ -ﷺ- فقالت: يا رسول الله، ادعُ الله لي أن يدخلني الجنَّة. فقال: «يا أم فلان، إنّ الجنَّة لا تدخلها عجوز» . قال: فولّت العجوز تبكي فقال: «أخبروها أنها لا تدخلها وهي عجوز، إن الله - تعالى- يقول: ﴿إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَاءً ﴿٣٥﴾ فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرُبًا أَتْرَابًا ﴿٣٧﴾﴾ [الواقعة: ٣٧]»[٢].

ومن هنا تعلم أن المزاح سُنَّةٌ ، إذًا فلا عِبْرَة بِمَنْ كَرِهَهُ .

قيل لسفيان بن عُيينة : « المزاح هُجْنَةٌ ؟ » . قال : « بل سنَّة ، لكن الشأن فيمن يحسنه ، ويضعه موضعه » [٣].

وهنا مسألة : قال الإمام ابن عبد البرّ -رحمه الله-: « وقد كره جماعةٌ من العلماء الخوضَ في المزاحِ ؛ لما فيه من ذميم العاقبة ، ومن التّوصُّل إلى الأغراض ، واستجلاب الضَّغائن، وإفساد الإخاء » [٤].

فكيف نجمع بين هذا وبين ما سَبَقَ تقريره ؟.

والجمع بين ذلك كما قال الحافظ -رحمه الله-: « والجمع بينهما : أن المنهيَّ عنه ما فيه إفراطٌ أو مداومةٌ عليه ؛ لما فيه من الشغل عن ذكر الله ، والتفكُّر في مهمَّات الدِّين ، ويئُولُ كثيراً إلى قسوة القلبِ ، والإيذاءَ ، والحقْدَ، وسقوط المهابة والوقَار.

والَذي يسلَم من ذَلك هو المباح، فإن صادف مصلحةً - مثل : تطييب نفس المخاطب ، ومؤانستِه - فهو مستحبٌّ » [٥].

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٩٩٨) ، والترمذي (١٩٩١) ، وفي شمائل النبي -ﷺ- (٢٣٩) وانظر صحيح أبي داود للألباني (٤١٨٠) .

(٢) أخرجه الترمذيّ في الشمائل (٢٤٠) من حديث المبارك بن فضالة عن الحسن مرسلاً، وحسَّنه الألبانيّ في مختصر الشمائل (٢٠٥) .

(٣) « شرح السنة » (١٨٤/١٣) . (٤) «بهجة المجالس» (٥٦٩/٢) .

(٥) « فتح الباري » (١٥٨/١٢) . وقريبٌ من هذا ما قاله النّوويّ -رحمه الله- في كتابه «الأذكار»: «قال العلماء : المزاح المنهيُّ عنه هو الذي فيه إفراط ، ويداوم عليه ؛ فإنه يورث الضّحك ، وقسوة القلب ، ويشغل عن ذكر الله ، والفكرَ في مهمَّات الدين ، ويئول -في كثيرٍ من الأوقات- إلى

«الكِبْــرُ ذُلٌّ، والتَّــوَاضُعُ رِفْــعَــةٌ والمِزَاحُ والضَّحِكُ الكثيرُ سُقُوطٌ».

وينقسم المزاح إلى قسمين :

١- محمود : وضابطه كما قال ابنُ حبَّانَ : « هو الَّذي لا يَشُوبه ما كره اللهُ -عزَّ وجلَّ-، ولا يكون بإثم ، ولا قطيعة رحم » [١].

٢- مذموم : وضابطه كما قال ابنُ حبَّانَ - أيضاً - :

« الذي يثير العداوةَ، ويُذهبُ البهاءَ، ويقطعُ الصَّداقةَ ، ويُجرِّئُ الدَّنيءَ عليه، ويُحقِدُ الشريفَ به » [٢].

ومن فوائد المزاح المحمود كما قال بعضهم : « يُسلِّي الهَمَّ ، ويرقعُ الخُلَّة[٣]، ويحيي النفوسَ، ويميلُ قلوبَ الناس إليه» [٤].

وكتب أحدهم إلى صاحبٍ له: «ولنا بعدُ مذهبٌ في الدُّعَابَةِ جميلٌ لا يَشُوبه أذىً ولا قَذىً، يخرج إلى الأُنس من العبوس، وإلى الاسترسال من القطوب، ويُلحقنا بأحرار الناس وأشرافهم ، الذين ارتفعوا عن لبسة الرِّياء والتَّصنُّع»[٥].

ومن مخاطر المزاح المذموم : إفسادُ المودَّة ، وإيغارُ الصُّدور ، وإثارةُ العداوة، وذهابُ البَهَاء ، وتجرئةُ الدَّنيء ، وحقدُ الشَّريف ، وإحياءُ الضَّغينة [٦] .

وهذا ما حدَا مِسْعَرَ بْنَ كُدَامٍ إلى أن ينصحَ ابنه كُداماً قائلاً :

« إنِّي نَحَلْتُكَ [٧] -يا كُدَامُ- نصيحتي فَاسْمَعْ مَقَالَ أبٍ عليك شَفِيقِ
أمَّا المُزاحةُ والمِراءُ فَدَعْهُمَا خُلُقَانِ لا أرْضَاهُمَا لِصَدِيقِ
إنِّي بَلَوْتُهُمَا [٨]، فَلَمْ أَحْمَدْهُمَا لِمجاورٍ جاراً ، ولا لِشَقِيقِ » [٩]

= الإيذاء، ويورث الأحقادَ ، ويسقط المهابةَ والوَقَارَ. فأما ما سلم من هذه الأمور، فهو المباح الذي كان رسول الله -ﷺ- يفعله، فإنّه كان يفعله في نادرٍ من الأحوال لمصلحةٍ، وتطييب نفس المخاطب ومؤانسته، وهذا لا منع منه مطلقاً، بل هو سنّة مستحبة إذا كان بهذه الصفة ، فاعتمد ما نقلناه عن العلماء وحقّقناه في هذه الأحاديث وبيان أحكامها؛ فإنّه ممّا يعظم الاحتياج إليه، واللهَ الموفّق».

(١) « روضة العقلاء » (ص٧٧). (٢) المرجع السابق (ص ٧٧).

(٣) **الخُلّة** - بضم الخاء- : الصَّداقة ، أي يرقع ويصلح من الصداقة والمودّة ما مزّقته الملالة والسأم .

(٤) « مسافر في قطار الدعوة » (ص٢٤٧). (٥) « عيون الأخبار » (١/ ٣٧٤).

(٦) « روضة العقلاء » (ص٧٧- ٨٠). (٧) **نحلتك** : من النّحلة، وهي العطيّة الخالصة على وُدٍّ وتكريم.

(٨) **بَلَوتهما** : اختبرتهما وجربتهما . (٩) « روضة العقلاء » (ص٧٨ -٧٩).

واعلم - أخي في الله - أنَّ المزاح كالملح في الطَّعام ، فاجعل له قدراً ، كما قال أبو الفتح البستيُّ:

«أفدْ طبعكَ المكدودَ [١] بالجدِّ راحةً يَجمّ [٢]، وعلِّلْهُ بشيءٍ منَ المزحِ
ولكنْ إذا أعطيتَهُ المزحَ، فليكنْ بمقدار، ما تعطي الطَّعامَ منَ الملحِ» [٣].

ثم عليك - أخي في الله - أن تتوخَّى [٤] طباع النَّاس ؛ وذلك لأنَّ بعض الناس قد يجرُّه مزحك معه إلى إيذائك ، كما قيل : « لا تمازح الشَّريفَ ، فيحقدَ عليكَ، ولا تمازح الوضيعَ فيجترئَ عليك » [٥].

وعن ابن المُنْكَدِر قال : قالتْ لي أُمِّي وأنا غُلامٌ : «لا تُمازِح الغلمانَ، فتهونَ عليهم، أو يجترئوا عليك» [٦].

وقال الشَّاعر :

« فإيَّاكَ إيَّاكَ المزاحَ؛ فإنَّهُ يجري عليك الطِّفْلَ والدَّنسَ النَّذْلا
ويُذْهبُ ماءَ الوجه بعْدَ بهائه ويورثه منْ بعْدِ عزَّته ذُلاً» .

قال ابن حبَّانَ : «مَنْ مازح رجلاً من غير جنسه ، هانَ عليه ، واجترأ عليه، وإن كان المزاحُ حقّاً ، لأنَّ كُلَّ شيْءٍ لا يجب أنْ يسلُكَ به غيرَ مسْلكه ، ولا يظهر إلاَّ عندَ أهْله، على أنِّي أكره استعمالَ المزاحِ بحضْرَةِ العامَّة ، كَما أكره تركَهُ عند حضُورِ الأشكال » [٧].

ولا يحسن المزاح مع الأعداء ؛ لما يقود إلى مفسدة تُؤذيك ، ومن الحكمة أنْ تتعرَّفَ علَى شخصيَّة مَنْ تريد المزاحَ معه ، هل هو مناسبٌ أم لا ؟، ولعلَّ هذا هو هَدْيُ النَّبيِّ - ﷺ - فلمْ يكنْ يمازحُ كُلَّ أصْحابه ، ومن اللَّباقة أنْ تُحْسنَ التَّصرُّفَ مع مَنْ يُخْطئُ معك في مزْحه حسب ما يناسب المقام : منْ ردٍّ مفحم، أو تجاهلٍ ، أو تحديق النظر فيه ، أو غيرَ ذلك .

« مازحْ صديقكَ ما أحبَّ مزاحًا وتوقَّ منه في المزاح مزاحا
فلربَّما مزحَ الصَّديق بمزحة كانتْ لبابِ عداوة مفتاحا» .

---

(١) المكدود: المتعب المرهق من شدَّة العمل .
(٢) يجمّ: يذهب إعياؤه، يقال: جمّ يَجمُّ -بكسر العين وضمِّها - جمامًا. (٣) «أدب الدنيا والدِّين» (ص٣١١).
(٤) تتوخَّى : تراعي. (٥) « روضة العقلاء » (ص ٧٧).
(٦) المرجع السابق (ص٨٠). (٧) المرجع السابق (ص٨١) .

تجنُّب الغضب

لا شكَّ أنَّ الذي يَمْلكُ نفسَهُ عند الغضب تُجاهَ انفعالاته العجولة تعلو مكانته في القلوب ، ويَحْظَى بحُبِّ الناس له ، ويَسْعَدُ بالقُرْبِ منهم .

ومن كان طَبْعُهُ الغضبَ لا ينْبُلُ ، ولا ينال العُلاَ ، ولا يحظى بحبِّ الناس له، بل لا يُطيق بعضُ النَّاسِ النَّظرَ إليه ، فكيف تُحبُّه قلوبُهم ؟ !.

فعلى مَنْ كان طبعُهُ الغضَبَ أن ينظرَ لنفسه في المرآة حالَ الغضب ، فإن كان لا يُطيق النظر لنفسه ، فعليه اجتنابه [١].

وقد عَدَّ رسول الله -ﷺ- الشديد مَنْ يَمْلكُ نَفْسَهُ عند الغضب ، فعن أبي هُرَيرة -رضي الله عنه- قال : قال رسولُ الله -ﷺ-: «**لَيْسَ الشَّدِيْدُ بالصُّرَعَةِ**[٢] ، **إنَّمَا الشَّدِيْدُ الذي يَمْلكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الغَضَبِ** »[٣].

وأوصى رسولُ الله - ﷺ - رجلاً جاء يسأله الوصيَّة ، فعن أبي هريرة - رضي الله عنه - أنَّ رجلاً قال للنَّبيِّ -ﷺ-: « أَوْصِنِي ». قال: « **لا تَغْضَبْ** » فردَّد مِرَاراً ، قال: « **لا تَغْضَبْ** »[٤].

---

(١) يُسْتَثْنَى منَ الغضب الغضبُ لله، فقد غضب رسول الله -ﷺ- في جملة مواطن، وغضبه لربِّه، وما غضب لنفسه قطُّ، ففي حديث عبد الله بن عَمْرو -رضي الله عنهما- قال: هَجَّرْتُ (أي بَكَّرْتُ) إلى رسول الله -ﷺ- يوماً قال: فسمع أصوات رجلين اختلفا في آية، فخرج علينا رسولُ الله -ﷺ- يعرف في وَجْهه الغضَبُ، فقال: «**إنَّما هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ باختلافهمْ في الكتاب**». أخرجه مسلمٌ في العلم (٢٦٦٦).
قلتُ :ويستفاد من هذا الحديث أنَّ الغضبانَ لا يُذَمُّ إذا كان غَضَبُهُ لله ، وفي حقٍّ ، والله أعلم .

(٢) **الصُّرَعَةُ** - بفتح الرَّاء - : مَنْ يَصْرَعُ النَّاسَ ويغلبهم ، وهو المقصود هنا ، وأمَّا **الصُّرْعة** - بسكون الراء- فهو الضعيف الذي يصرعه النَّاسف ويغلبونه .

(٣) رواه البخاريُّ في الأدب (٦١١٤) . ومسلمٌ في البرِّ والصِّلة (٢٦٠٩).

(٤) رواه البخاريُّ في الأدب (٦١١٦).

« ولَمْ أَرَ فَـضْـلاً تَمَّ إلاَّ بشِـيْـمَـةٍ   وَلَمْ أَرَ عَـقْـلاً صَحَّ إلاَّ عَلَى الأَدَبِ
ولَمْ أَرَ في الأَعْـدَاءِ حِيْنَ اختَبـرتُهم   عَدُواً لعَقْلِ المَرْءِ أَعْدَى مِنَ الغَضَبِ»[١].

وعلاج الغضب سهلٌ يسيرٌ عَلَى مَنْ يَسَّرَهُ الله عليه ، وهو نوعان : **حَسِّيٌّ، ومعنويٌّ** ، فالأوَّل يندرج تحته :

١- الاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم حال الغضب لقول الله – سبحانه وتعالى – :

﴿ **وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ** ﴾ .

[الأَعْرَاف: ٢٠٠] .

وعن سُلَيْمَانَ بْنِ صُرَدٍ – رضي الله عنه – قال: اسْتَبَّ رَجُلَانِ عِنْدَ النَّبيِّ – ﷺ – ، فجعل أَحَدُهُمَا يغضبُ، ويَحْمَرُّ وَجْهُهُ ، فنظر إليه النَّبيُّ – ﷺ – فقال:

« **إنِّي لَأَعْلَمُ كَلِمَةً ، لو قَالَهَا لَذَهَبَ ذَا عَنْهُ : أعوذُ باللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ** »[٢].

فالاستعاذة بالله تُذَكِّرُ العبدَ بربِّه ، وبقُدْرة خالقه، فيدعوه ذلك إلى الخوف منه الباعث على الطَّاعة له ؛ فيرجع إلى أدبه ، ويَحْلُم عمَّن أساء إليه .

ورُوِيَ أنَّ عبد الله بن مسلم بن محاربٍ قال لهارون الرَّشيد:

« يا أميرَ المؤمنين ، أسألك بالَّذي أنت بين يديه أذلُّ مني بين يديك، وبالَّذي هو أقدرُ على عقابك منك على عقابي – لما عفوتَ عنِّي ! » .

فعفا عنه لما ذكَّره قدرة الله – تعالى –[٣].

---

(١) « روضة العقلاء » (ص١٣٩).

(٢) رواه البخاريُّ في بَدْء الخلق (٣٢٨٢) ، ومسلمٌ – واللَّفظ له – في البرِّ والصِّلة (٢٦١٠).

(٣) « أدب الدنيا والدِّين » (ص٢٥٩).

٢- أن يتحوَّلَ عن الحالة الَّتي هو فيها حال الغضب ، فإذا كان قائماً فليقعد، وإذا كان جالساً فليضطجعْ .

عن أبي ذرٍّ – رضي الله عنه – قال : إنَّ رسول الله – ﷺ – قال لنا :

« **إذا غضبَ أحَدُكُمْ وهو قائمٌ فلْيَجْلسْ، فإنْ ذَهَبَ عنه الغَضَبُ، وإلاَّ فَلْيَضْطَجِعْ** » [1].

ولله درُّ أبي العتاهية – يرحمه الله – حين قال:

« لا يُصْلِحُ النَّفْسَ إذْ كانت مُدبرة   إلاَّ التَّنَقلُ مِنْ حَالٍ إلى حَالِ »[2].

٣- لزوم السُّكوت حال الغضب.

جاء في الحديث: « **وإذا غَضِبْتَ فاسْكُتْ ، وإذا غَضِبْتَ فاسكُتْ ، وإذا غَضِبْتَ فَاسْكُتْ** » [3].

وأمَّا الثَّاني – أعني العلاج المعنويَّ – فيندرج تحته :

١- أن يستحضرَ ثناءَ الله – تعالى – على الكاظمين الغيظَ في هذه الدَّار، وما أعدَّه لهم من عظيم الأجر في دار القرار ؛ فإنَّ ذلك يدعوه إلى قَهْرِ غَضَبِه رغبةً في الثَّناءِ والثَّوابِ ، وحذراً من استحقاقِ الذَّمِّ والعقابِ .

قال اللهُ – سبحانه وتعالى – :

﴿ **وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ** ﴾ .

[آل عمران: ١٣٤] .

---

(١) أخرجه أبو داود في الأدب (٤٧٨٢) ، وصحَّحه الألبانيُّ في « صحيح الجامع » (٦٩٤) .

(٢) « أدب الدُّنيا والدِّين » (ص ١٣) .

(٣) أخرجه أحمد في « المسند » (١/٢٨٣ – ٣٦٥) ، والبخاريُّ في « الأدب المفرد » ، وإسناده حسنٌ لشواهده .

ويقول – أيضاً – :

﴿ **وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ** ﴾ .

[النُّور : ٢٢] .

فمن قهر غضبه ، فعفا وصفح عن أخيه ، عفا الله عنه ، وغفر له ؛ فالجزاء من جنس العمل .

وعن مُعاذ بن سَهْلٍ – رضي الله عنه – أنَّ رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قال : « **من كَظَمَ غَيْظاً –وهو قادرٌ على أَنْ يُنَفِّذَهُ– دَعَاهُ اللهُ يَوْمَ القيامة عَلَى رُءُوْسِ الخلائق ؛ حتَّى يُخَيِّرَهُ منْ أيِّ الحُور** [١] **العيْن** [٢] **شاءَ** » [٣] .

«وكنتُ إذا الصَّديقُ أرادَ غَيْظي وشَرقني[٤] – على ظَمَأ – بريقي
غَفَرْتُ ذُنوبَهُ، وكَظَمْتُ غَيْظي مَخَافَةَ أنْ أَعيشَ بلا صَديقي» .

٢- أَنْ يتذكَّر أنَّ الشَّيطان هو الدَّافعُ له ، والمعينُ عليه .

رُويَ أنَّ رجلاً أسمع عُمَرَ بْنَ عبد العزيز كلاماً ، فقال عُمَرُ :

« أَرَدْتَ أَنْ يستفزَّني الشَّيطانُ لعزَّة السُّلطان ؛ فأنال منك اليومَ ما تناله منِّي غداً . انصرف ، رحمك اللهُ ! » [٥].

٣- أن يتذكَّر أن استمراره في الغضب يزيد الشَّحْنَاءَ والبَغْضَاءَ ؛ فيئُول إلى النَّدم ، ومذمَّة الانتقام .

---

(١) **الحُور** : شديدات سواد العُيون وبياضها ، جمع حَوْراءَ .

(٢) **العين** : ضخام الأعين وحسانها ، جمع عَيْناء .

(٣) أخرجه التِّرمذيُّ في البِّر والصِّلة (٢٠٢١) ، وفي صفة القيامة (٢٤٩٣) ، وقال : « حَسَنٌ غريبٌ » ، وابن ماجَة في الزُّهْد (٤١٨٦)، وحسَّنه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (٦٥١٨) و (٦٥٢٢) .

(٤) **شرقني** : أغصَّني.

(٥) « أدب الدُّنيا والدِّين » (ص ٢٦٠).

قال بعضُ الأدباء :

« إيَّاكَ وعزَّةَ الغَضَبِ ؛ فإنَّها تُفضي إلى ذُلِّ العُذْرِ » [١] .

وقال بعضُ الشُّعراء :

« وإذَا مَا اعْتَرَتْكَ في الغَضب العِـ ـزَّةُ ، فـاذْكُـرْ تَذلُّلَ الاعْـتـذَارِ» [٢]

٤- مجاهدة النَّفس ، فالشَّديدُ – كما جاء في الحَديث السَّابق – إنَّما هو مَنْ يملك نفسه عند الغضب .

قال الماورديُ – رحمه الله – : « فينبغي لذي اللُّبِّ السَّويِّ ، والحَزْمِ القويِّ أَنْ يتلقَّى قوَّة الغضب بحلْمه فيصدَّها ، ويُقابلَ دواعيَ شرَّته [٣] بحزمه فيردَّها ؛ ليَحْظَى بأجلِّ الخبرة [٤]، ويسعد بحميد العاقبة » [٥] .

وما أجمل ما قاله أحد الشُّعراء :

« تَرَفَّقْ – أيُّها القمرُ المنيرُ – ولا تَكُ كالرِّياحِ لها زَئيرُ
فإنَّك بالسَّناء[٦] مَلأتَ وَجْهي ووَجْهُكَ في دَيَاجينا نضيرُ
وتلكَ الرِّيحُ هَاجَتْ في عُتُوٍّ فَزُلْزِلَتِ المَنَازِلُ والقُصُورُ» .

(١) «أدب الدنيا والدين» (٢٥٩) .
(٢) المرجع السَّابق (٢٥٩) .
(٣) **الشِرَّة** : الشَّرُّ والحدَّة .
(٤) هكذا وردتْ في الكتاب ، ولعلَّ الصَّواب الخيرة .
(٥) « أدب الدُّنيا والدِّين » (ص٢٥٨) .
(٦) **السَّناء** : الضَّوءالسَّاطع .

العدل

الرجلُ الذي يعدلُ في حكمه بين أهله ، وأولاده ، ومَنْ له عليهم ولايةٌ- تُحبُّه قلوبُ النَّاسِ ، بل ويصدرون عن رأيه عند النزاع ، ويرجعون إليه عند الاختلاف، فيحصل بعدله شفاءُ القلوب ، وطُمأنينةُ النُّفوس ، وإن سخط عليه المبطلُ اليوم ، رضي عنه غداً .

وتمامُ العدلِ حين يكون مع الصَّديق والعدوِّ، كما قال الله - سبحانه وتعالى-: ﴿ **وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ**(١) **شَنَآنُ**(٢) **قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ** ﴾[المائدة : ٨].

وقد فَقِهَ يهودٌ أنَّ هذا العدل به تقومُ السَّموات والأرض ، حين جاءهم عبد الله بن رواحةَ مبعوثاً من رسول الله - ﷺ -؛ لتقدير محصولهم منَ الثِّمار والزّروعِ ، وتقاسمها حسب ما تمَّ الاتفاق عليه بعد فتح خَيْبَرَ ، فحاولوا رِشْوةَ ابن رواحةَ؛ ليَرْفُقَ بهم ، فقال لهم :

« والله، لقد جئتُكم من عند أحبِّ الخَلْق إليَّ، ولأنتم أبغضُ إليَّ من عدَّتكم منَ القِرَدَة والخنازير ، وما يَحْملُني بُغْضي إيَّاكم ، وحُبِّي إيَّاه على ألاَّ أعدل عليكم » . فقالوا : « بهذا قامتِ السموات والأرضُ » (٣) .

وقد ربَّى الرسول - ﷺ - أصحابه على العدل ، فحين انتهر الصحابة أعرابيّاً اشتدَّ على رسول الله - ﷺ - في طلب دَيْنه ، فقال لهم رسول الله - ﷺ -: « **هلاَّ مَعَ صَاحِبِ الحقِّ كُنْتُمْ ؟!** »(٤).

---

(١) **يَجْرِمَنَّكُمْ** : يحملنَّكم.
(٢) **شنآن** : شدَّة البُغض والكراهيَة .
(٣) « البداية والنهاية » (٤/١٩٩).
(٤) رواه ابن ماجة في الصدقات (٢٤٢٦) عن أبي سعيدٍ الخُدْريِّ ، وصحَّحه الألبانيُّ في « صحيح ابن ماجة» (١٩٦٩).

والعَدْلُ – مع كونه طريقنا للقلوب – من أعظم الطَّاعة أجراً ، فعن أبي هريرة – رضي الله عنه – قال: قال رسول الله – ﷺ –: « **كُلَّ يَوْمٍ تَطْلُعُ فيه الشَّمْسُ، يَعْدِلُ بَيْنَ النَّاسِ صَدَقَةٌ** »[1].

وعن عبد الله بن عمرٍو – رضي الله عنهما – قال: قال رسول – ﷺ –:

«**إنَّ المُقْسطينَ عندَ الله على مَنَابرَ منْ نورٍ عَنْ يمين الرَّحْمن -عزَّ وجلَّ-، وكِلْتَا يَـدَيْه يمَيــنٌ: الذين يَعْدلُونَ في حُكْمهمْ، وأَهْليْهمْ، وما وَلُوا**»[2].

وينبغي لمن يعدل بين النَّاسِ أن يكونَ على جانبٍ منَ الشجاعة، والنجدة، والكرم، والشَّهَامَة ، والرِّفق واللِّين، ويستعمل – أيضاً – إلى جانب الرِّفق واللِّين الحَزْمَ والصَّرامةَ في آنٍ واحدٍ، فالرِّفق واللِّين لمن كان سَهْلاً هيِّناً، والعصا لمن عصَى، كما قال الله – سبحانه وتعالى – على لسان يوسف – عليه السلام –: ﴿**ائْتُوني بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبيكُمْ أَلا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنزِلِينَ (٥٩) فَإِن لَّمْ تَأْتُوني به فَلا كَيْلَ لَكُمْ عندي وَلا تَقْرَبُونِ**﴾ [يوسف : ٥٩– ٦٠].

وهنا فائدةٌ أَسُوقُها لمريد العَدْلِ : وهي أنَّه متى اتضح له الحقُّ ، فلا ينبغي له أن يتردَّدَ في تطبيقه ؛ فإنَّ التردُّدَ يُضيعُ الحقَّ ، وهو – أيضاً – دليلٌ على الانهزام ، وضعف الشخصية ، وفساد الرأي ، وعدم الأهليَّة.

ولقد أجاد مَنْ قال – وأَحْسَنَ – :

« إذا كُنْتَ ذا رأْيٍ، فكُنْ ذَا عَزِيمةٍ ... ولا تكُ بالتَّرْدَاد للرَّأْي مُفْسِدا
فإنِّي رأيْتُ الرَّيْبَ في العَزْمِ هُجْنَةً[3] ... وإنْفاذَ ذي الرَّأْي العزيمةَ أَرْشَدا»[4].

(١) رواه البخاريُّ في الصُّلْح (٢٧٠٧) ، ومسلمٌ في الزَّكاة (١٠٠٩) .
(٢) رواه مسلم في الإمارة (١٨٢٧) .
(٣) **تهجين الأمر**: تقبيحه.
(٤) «أدب الدُّنيا والدِّين» (ص٣٠٥) .

الرِّفْقُ بالنَّاسِ

جُبِلَ النَّاسُ على حبِّ مَنْ يَرْفُقُ بهم، كما جُبِلُوا على النُّفورِ مِنَ الفظِّ الغليظ، حتى ولو كان من خير عباد الله، قال الله – سبحانه وتعالى –: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا [١] غَلِيظَ الْقَلْبِ [٢] لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ [٣] ﴾ [آل عمران : ١٥٩].

قال الإمام البغويُّ في تفسير هذه الآية : « ﴿ لِنتَ لَهُمْ ﴾ : أيْ سَهُلَتْ لهم أخلاقُكَ، وكَثُرَ احتمالُكَ ، ولمْ تُسرعْ لهم بالغَضَبِ فيما كان منهم يَوْمَ أُحُدٍ » [٤].

وقال ابن الجوزيُّ –رحمه الله–: « **قال قَتَادَةُ**: ومعنى ﴿ لِنتَ لَهُمْ ﴾ : لان جانبُكَ ، وحَسُنَ خُلُقُكَ ، وكَثُرَ احتمالُكَ » [٥].

« إذا صَاحَبْتَ قَوْماً أهْلَ فَضْلٍ ... فَكُنْ لَهُمُ كَذي الرَّحِمِ الشَّفِيقِ
وَلاَ تَأْخُذْ بِزَلَّةِ كُلِّ قَوْمٍ ... فَتَبْقَى في الزَّمانِ بلاَ رَفِيقِ ».

والرِّفق ما كان في شيءٍ إلا زَانَهُ ، ولا يُنزعُ من شيءٍ إلا شَانَهُ ، فعن عائشة – رضي الله عنها – قالتْ : قال رسول الله – ﷺ –: « **إنَّ الرِّفْقَ لا يكونُ في شَيْءٍ إلا زانَهُ، ولا يُنزَعُ مِنْ شَيْءٍ إلا شَانَهُ** » [٦].

(١) **فظًّا** : أي جافياً .
(٢) **غليظ القلب** : أي قاسيه .
(٣) **لانفضُّوا من حوْلك** : أي انصرفوا عنك .
(٤) « تفسير البغوي » (١/٣٦٥) .
(٥) « زاد المسير » (١/٤٨٦) .
(٦) رواه مسلم في البرّ والصِّلة (٢٥٩٤) .

وعنها – أيضاً – قالتْ : قال رسول الله – ﷺ –: « **إنَّ اللهَ رَفيقٌ، يُحبُّ الرِّفْقَ في الأمرِ كُلِّه** » [1].

« الرِّفْقُ أَيْمَنُ شَيْءٍ أَنْتَ تَتْبَعُهُ والخَرَقُ أَشْأَمُ شَيْءٍ يَقْدُمُ الرَّجُلا[2]
وَذُو التَّثَبُّتِ مِنْ حَمْدٍ إِلَى ظَفَرٍ[3] مَنْ يَرْكَبِ الرِّفْقَ لا يَسْتَحْقِبِ الزَّلَلا[4] »[5]

والرفق – أيضاً – من نعم الله على عباده ، قال رسول الله – ﷺ –:

« **إذا أرادَ اللهُ بقومٍ خيراً ، أَدْخَلَ عليهِمُ الرِّفْقَ** » [6].

ودعا – ﷺ – لمن رَفَقَ بأُمَّته ، فقال : « **اللَّهُمَّ، مَنْ وَلِيَ مِنْ أَمْرِ أُمَّتي شيئاً، فَشَقَّ عليهم ، فَاشْقُقْ عليه ، ومن وَلِيَ مِنْ أَمْرِ أُمَّتي شيئاً ، فَرَفَقَ بهم، فارفُقْ به** » [7].

وبيَّنَ أَنَّ اللهَ – سبحانه وتعالى – يُعطي على الرِّفق ما لا يُعطي على ما سواه، فقال – ﷺ –: « **إنَّ اللهَ رَفيقٌ ، يُحبُّ الرِّفْقَ ، ويُعطي على الرِّفْقِ ما لا يُعطي عَلَى العُنْف** [8]**، وما لا يُعطي على مَا سِوَاهُ** » [9].

« لَمْ أَرَ مِثْلَ الرِّفْقِ في لِيْنِه أَخْرَجَ لِلْعَذْرَاءِ مِنْ خِدْرِهَا
مَنْ يَسْتَعِنْ بالرِّفْقِ في أَمْرِهِ يَسْتَخْرِجِ الحَيَّةَ مِنْ جُحْرِهَا »[10]

---

(1) رواه البخاريُّ في الأدب (6024) ، وفي الاستئذان (6256) ، ومسلمٌ في السَّلام (2165).
(2) **يَقْدُمُ الرَّجُلَ** : يقوده ويتقدَّمُه .
(3) **الظَّفَر** : الفوز بالمطلوب، وبابه فَرِحَ .
(4) **استحقَبَ الشيءَ** : جعله في حَقيبته، كأنَّه يرجع به إلى أهْلِه .
(5) « روضة العقلاء » (ص216).
(6) رواه البزَّار ، ورجاله رجال الصحيح . انظر «مجمع الزوائد» (19/8) ، وصحَّحه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (303) ، وفي «الصحيحة» (1219).
(7) رواه مسلمٌ في الإمارة (1828) عن عائشةَ – رضي الله عنها –.
(8) **العُنْفُ**: هو ضدُّ الرِّفق.
(9) رواه مسلم في البرِّ والصِّلة (2593) عن عائشةَ – رضي الله عنها –.
(10) «حياة الحيوان» (275/1).

تجنُّبُ الجِدَالِ

الجدالُ منَ الآفاتِ القاتلة التي تشحن الصُّدورَ بالحقْد ، والقلوبَ بالكراهيةَ لبعضها ، والتعسُّف في ردِّ الحقِّ ، وبَخْسِ النَّاسِ حُقُوقَهم ، والسُّرور بالغَلَبَة والقَهْر.

وينقسمُ الجدالُ إلى قسمين :

١- محمود : وهو الذي يهدفُ إلى الرشدِ مع مَنْ يُرْجَى رُجُوعُهُ عَن الباطلِ إلى الحقِّ ، وفيه قال الله – سبحانه وتعالى – :﴿ **ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ** ﴾ [النحل: ١٢٥].

وقال الله – سبحانه وتعالى – :﴿ **وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ** ﴾ [العنكبوت: ٤٦] .

لكن متى وصل الجدال إلى حدِّ المِراء ، صار مذموماً .

٢- مذموم : وهو الذي لا يهدف الوصولَ إلى الحقِّ ، والأخذ به ، وإنَّما رغبةً في اللَّدَدِ والخصومة ، وحُبّاً في التَّشَفِّي من الطَّرَف الآخر.

والجدال المذموم لا يأتي بخيرٍ غالباً، فعن أبي أُمَامَةَ قال: قال رسول الله – ﷺ –: «**ما ضَلَّ قومٌ بَعْدَ هُدَىً كانوا عليه، إلا أُوتُوا الجَدَلَ**» . ثم تلا رسولُ الله – ﷺ – هذه الآية:﴿ **مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ** ﴾ [١].

[الزُّخْرف: ٥٨] .

بل كان الجدال المذموم سبباً لرفع الخير ، فعن عُبَادَةَ بْنِ الصَّامتِ

---

(١) رواه الترمذيُّ في تفسير القرآن(٣٢٥٣) ، وقال :« حَسَنٌ صحيحٌ » ، وابْنُ ماجَة في السُّنَّة(٤٨) ، وحسَّنه الألبانيُّ في « صحيح الترمذيِّ »(٢٥٩٣) و(٣٤٨٣) .

- رضي الله عنه - قال : خرج رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ليُخبِرَ النَّاسَ بليلة القَدْر، فَتَلاحَى رَجُلان من المسلمين، قال النَّبيُّ - صلى الله عليه وسلم -: « **خرجْتُ لأُخْبِرَكُمْ ، فتَلاحَى فلانٌ وفلانٌ، وإنها رُفِعَتْ ، وعسى أنْ يكونَ خيراً لكم، فالتَمسُوها في التَّاسعة ، والسَّابعة ، والخامسة** » [١].

وعن ابنِ عبَّاسٍ - رضي الله عنهما - قال: لمَّا حُضِرَ رسولُ الله - صلى الله عليه وسلم - وفي البيت رجالٌ ، فيهم عمرُ بْنُ الخطَّاب ، فقال النَّبيُّ - صلى الله عليه وسلم - : « **هَلُمَّ أكْتُبْ لكم كتاباً لا تَضِلُّوا بَعْدَهُ أبداً** » . فقال عُمَرُ : « إنَّ رسولَ الله - صلى الله عليه وسلم - قد غَلَبَ عليه الوَجَعُ ، وعندكُم القرآنُ ، حَسْبُنَا كتابُ الله » . فاختلف أهلُ البيت فاختصموا ، فمنهم من يقول : قرِّبوا يكتبْ لكم رسولُ الله - صلى الله عليه وسلم - كتاباً لن تضلُّوا بَعْدَهُ ، ومنهم من يقول ما قال عُمَرُ ، فلمَّا أكثروا اللَّغْوَ والاختلافَ عند رسولِ الله - صلى الله عليه وسلم - ، قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « **قُوموا** ». قال عُبَيْدُ الله : فكان ابنُ عَبَّاسٍ يقول: « إنَّ الرَّزِيَّةَ كُلَّ الرَّزِيَّة ما حال بَيْنَ رسولِ الله - صلى الله عليه وسلم - وبَيْنَ أنْ يَكْتُبَ لهم ذلك الكتابَ مِن اختلافِهِمْ ولَغَطِهِمْ» [٢].

وكما يكون الجدال سبباً لرفع الخير ، فهو - أيضاً - سببٌ لإيجاد الضَّغائن، قال ابنُ عبَّاسٍ لمعاويةَ - رضي الله عنهم -: «هل لك في المناظرة فيما زَعَمْتَ أنَّك خاصمتَ فيه أصحابي؟» . قال: «وما تصنعُ بذلك؟!، أَشْغَبُ بك، وتشغب بي، فيبقى في قلبك ما لا يَنْفَعُكَ، ويَبْقَى في قلبي ما يضرُّكَ» [٣].

وقال مالكُ بْنُ أنسٍ -رحمه الله -: « الجدالُ في الدِّينِ يُنشئُ المِرَاءَ، ويُذْهِبُ بنورِ العلمِ ، ويُقسِّي القَلْبَ ، ويُورِثُ الضَّغائنَ » [٤].

---

(١) رواه البخاريُّ في الاعتكاف (٢٠٢٣)، وفي الأدب (٦٠٤٩).

(٢) رواه البخاريُّ في الاعتصام ، باب كراهية الاختلاف (٧٣٦٦) .

(٣) « بهجة المجالس » (٢/٤٢٩- ٤٣٠).

(٤) « ترتيب المدارك » (١/١٧٠).

الألفة

الأُلْفَةُ: هي الاجتماع على الحبِّ في الله، وائتلاف القلوب على طاعة الله، وخلوصُها من نوازع الجاهلية، وهي من أعظم نِعَم الله على العباد بعد نعمة الهدى والإيمان، قال الله – سبحانه وتعالى –: ﴿ وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا ﴾ [آل عمران: ١٠٣].

وقد يستطيع المرءُ أن يجمعَ الناس بِغَرَضٍ من الدنيا، ولكنَّه لا يستطيع أن يُؤلِّفَ بين قلوبهم إلاَّ بتوفيقٍ من الله، قال الله – سبحانه وتعالى –: ﴿ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ﴾ [الأنفال: ٦٣].

والأُلْفَةُ صفةٌ من صفات أَهْلِ الإيمان، فعن ابن عُمَرَ – رضي الله عنهما – قال: قال رسولُ الله – ﷺ –: « **المؤمنونَ هَيِّنونَ لَيِّنونَ، كالجَمَلِ الأَنِفِ، إنْ قِيدَ انقادَ، وإذا أُنيخَ على صَخْرةٍ استناخَ** » (١).

وعن عبد الله بن مسعود – رضي الله عنه – قال: قال رسول الله – ﷺ –: « **ألا أُخْبِرُكُمْ بمَنْ يَحْرُمُ على النارِ، أو بمَنْ تَحْرُمُ عليه النارُ؟ على كُلِّ قريبٍ هَيِّنٍ سَهْلٍ** » (٢).

وعن أبي هريرةَ – رضي الله عنه – قال: قال رسولُ الله – ﷺ –: « **من كانَ سَهْلاً هَيِّناً لَيِّناً، حرَّمَهُ اللهُ على النَّارِ** » (٣).

---

(١) رواه البيهقيُّ في « الشُّعب » عن ابن عمر، وابن المبارك عن مكحول مرسلاً، وحسَّنه الألبانيُّ في « صحيح الجامع » (٦٦٦٩)، وفي « الصحيحة » (٩٣٦) و (٩٩٩).

(٢) رواه الترمذيُّ، والطبرانيُّ في « الكبير » عن ابن مسعودٍ، وأبو يعلى في «المسند» عن جابر، وصحَّحه الألبانيُّ في « صحيح الجامع » (٢٦٠٩)، و في « الصَّحيحة » (٩٣٨).

(٣) رواه الحاكم في «المستدرك»، والبيهقيُّ في «السُّنن»، وصحَّحه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (٦٤٨٤)، وفي «الصحيحة» (٩٣٨).

وعن جابر بن عبد الله – رضي الله عنهما – قال: قال رسول الله – ﷺ –: «**المؤمنُ يألَفُ ويُؤْلَفُ، ولا خيْرَ فيمَنْ لا يألَفُ ولا يُؤْلَفُ، وخيرُ النَّاس أنفَعُهُمْ للنَّاسِ**» [١].

فكنْ – أخي في الله – رجلا اجتماعيّاً يُحسن سياسةَ النَّاسِ ؛ فالنَّاسُ يُحبُّون من كانت هذه صفاته ، ويأنسون له ، بل ويصدرون عن رأيه ، ويأخذون بقوله ؛ إلْف مألوف فهو في قلوبهم بالمحلّ ، ومن كان هذا حاله لا يَفْرَحُ مَنْ يبغضُهُ ، ولا يحزن مَنْ يُحبُّهُ .

« كَأنَّكَ في الكتاب وَجَدْتَ لاءً ... مُحَرَّمةً عليك ، فلا تَحلُّ
إذا حَضَرَ الشّتاءُ فأنت شَمْسٌ ... وإنْ حَلَّ المَصيفُ فأنت ظلٌّ » .

ولا تَعَارُضَ بين تآلف القلوب والمحافظة على الهَيْبة والتقدير ، إذا أحسنتَ التصرف، ووازنت بين الأمور؛ ولذلك نجد في وصف رسول الله – ﷺ –: « **مَنْ رآه بَديهةً** [٢]**هَابَهُ ، ومَنْ خالَطَهُ مَعْرِفَةً أحبَّهُ** » [٣].

« إنَّ هَواكَ الَّذي بقَلْبي ... صَيَّرَني سامعاً مُطيعا [٤]
أخَذْتَ قَلْبي ، وغَمْضَ عَيْني ... سَلَبْتَني النَّومَ والهُجُوعَا
فَذَرْ فُؤادي ، وخُذْ رُقَادي ... فقال : لا، بَلْ هُما جَميعًا » .

---

(١) رواه الطَّبرانيُّ في «الكبير»، والبيهقيُّ في «الشُّعَب»، وحسَّنهُ الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (٦٦٦٢)، وفي «الصحيحة» (٤٢٦).

(٢) **البديهة**: المُفَاجأةُ ، يُقَال : بَدَهْتُهُ بأمرٍ : أي فَجأْتُه.

(٣) رواه التِّرمذيُّ في المناقب (٣٦٣٨) وهو حسَنٌ. انظر « جامع الأصول » (٢٢٥/١١) (٨٧٨٤).

(٤) إشارة لحديث «**لا يُؤْمِنُ أحَدُكُمْ حتَّى يكونَ هَوَاهُ تَبْعاً لما جِئْتُ به**» أخرجه ابنُ رجبٍ في «جامع العلوم والحكم» (٤٩٣/٢) ، وانظر تخريجه مفصّلاً فيه ، وقد حسَّنه النَّوويُّ وغيره ، وضعَّفه ابن رجبٍ ، وهو صحيح المعنى بلا شكٍّ .

المُداراة

المُدَاراة من أعظم وسائل كسب القلوب المتنافرة ، وإطفاء العداوة ، وقَلْبها إلى صداقةٍ ومحبَّةٍ .

وهي ترجع إلى القول الحسن ، وحسن اللّقاء ، وتجنُّب ما يشعر بنفورٍ أو غضبٍ في حقِّ مَنْ في خُلُقه شيءٌ ، أو مَنْ يُتوقَّعُ منه الأذى .

وقد كان النَّبيُّ – ﷺ – يُدَاري في كثيرٍ من الأحيان مَنْ هذا حاله ، فعنْ عائشةَ –رضي الله عنها– أنَّ رجلاً استأذن على النَّبيِّ –ﷺ– فقال: «**ائْذَنُوا لَهُ، فَلَبِئْسَ ابْنُ العَشِيْرَةِ**[1] –**أو بِئْسَ رَجُلُ العَشِيْرَةِ**–» فلمَّا دخل عليه، ألان له القولَ[2].

قالت عائشة – رضي الله عنها –: فقلتُ : « يا رسولَ الله ، قُلْتَ له الذي قُلْتَ، ثُمَّ أَلَنْتَ له القولَ ؟! » .

قال : « **يا عائشةُ ، إنَّ شرَّ الناسِ منزلةً عندَ اللهِ يَوْمَ القيامةِ مَنْ وَدَعَه – أو تَرَكَهُ – الناسُ اتِّقاءَ فُحْشِه** »[3].

---

(١) **المراد بالعشيرة** : قبيلته ، أي بئس هذا الرجل منها .

(٢) قال الخطَّابيُّ –رحمه الله– كما في « فتح الباري » (١٠/٤٥٤) : «جمع هذا الحديث عِلْماً وأدباً، وليس في قول النبيِّ –ﷺ– في أُمَّته بالأمور التي يُسَمِّيهم بها ، ويُضيفها إليهم من المكروه – غِيْبَةٌ، وإنما يكون ذلك من بعضهم في بعضٍ ، بل الواجب عليه أن يبيِّنَ ذلك ، ويُفْصِحَ به، ويُعَرِّفَ الناس أمرَهُ؛ فإن ذلك من باب النصيحة ، والشفقة على الأُمَّة ، ولكنه لما جُبِلَ عليه من الكَرَم ، وأُعْطِيَهُ من حسن الخلق ؛ أظهر له البَشَاشَةَ ، ولم يُجِبْهُ بالمكروهِ ؛ لتقتديَ به أُمَّتُهُ في اتِّقاءِ شرِّ مَنْ هذا سبيلُهُ، وفي مداراته؛ ليسلموا من شرِّهِ » اهـ .

(٣) رواه البخاريُّ في الأدب (٦٠٣٢) ، ومسلمٌ في البرِّ والصِّلة (٢٥٩١).

قال الحافظُ ابن حجر -رحمه الله-: « المُداراةُ مِنْ أخلاقِ المؤمنين ، وهي: خَفْضُ الجَنَاحِ للنَّاسِ، ولينُ الكلمة، وتركُ الإغلاظِ لهم في القول ، وذلك من أقوى أسباب الأُلْفَة . وظَنَّ بعضُهم أنَّ المداراة هي المداهنة فغلط ؛ لأن المداراة مندوبٌ إليها ، والمداهنةُ مُحَرَّمَةٌ .

والفرق أن المداهنة من الدِّهان: وهو الذي يظهر على الشَّيء، ويستر باطنه، وفسَّرها العلماء بأنها: معاشرةُ الفاسقِ، وإظهارُ الرِّضا بما هو فيه من غير إنكارٍ عليه.

والمداراة : هي الرِّفق بالجاهل في التعليم ، وبالفاسق في النَّهْي عن فعله، وتركِ الإغلاظ عليه ؛ حتى لا يظهرَ ما هو فيه ، والإنكار عليه بلطفِ القولِ والعملِ، ولا سيَّما إذا احتيج إلى تألُّفه ، ونحو ذلك » [1] .

وما أجمل ما قاله الشَّافعيُّ في مُدَاراةِ النَّاسِ :

« وأَنْزَلَني طُوْلُ النَّوَى[2] دَارَ غُرْبَةٍ إذَا شِئْتُ لاقَيْتُ امْرَأً لا أُشَاكِلُهْ[3]
أُحَامِقُهُ[4] حتَّى تُقَالَ سَجِيَّةٌ[5] ولو كَانَ ذَا عَقْلٍ لَكُنْتُ أُعَاقِلُهْ[6] »[7]

فما أحوجنا إلى هذه الصفة الحميدة ، وخصوصاً مع مَنْ لابُدَّ لنا من معاشرته ، ومَنْ منَّا يستغني عن هذه السُّنَّة ؟! .

قال العتابيُّ : « المداراة سياسةٌ لطيفةٌ ، لا يستغني عنها مَلِكٌ ، ولا سوقةٌ[8]،

---

(١) « فتح الباري» (٥٢٨/١٠) .
(٢) **النَّوى** : البُعْد والفراق .
(٣) **أشاكله**: أُشابهه وأُماثله .
(٤) **أُحامقهُ**: أُجَاريه في حُمْقه.
(٥) **السَّجيَّة** : الخُلُق والطَّبيعة، والجمع سجايا .
(٦) **أُعاقله** : أُجَاريه في عَقْله.
(٧) «ديوان الشَّافعيّ» (ص١٠٣) ، تحقيق البقاعي .
(٨) السُّوقة - بالضَّمّ - : ضدّ المَلِك، يستوي فيه الواحد والجمع، والمذكَّر والمؤنَّث، ورُبَّما جُمع على سُوَقٍ - بفتح الواو - .

يجتلبون بها المنافع ، ويدفعون بها المضارَّ ، فمن كَثُرَتْ مداراتُهُ ، كان في ذِمَّة الحَمْدِ والسَّلاَمة » (١) .

وقال الحسن : « حُسْنُ السُّؤَالِ نصفُ العلمِ ، ومداراةُ الناسِ نصفُ العَقْلِ، والقصدُ في المعيشةِ نصفُ المؤونةِ » (٢) .

وقال أحدُ الشعراء :

« وأَمْنَحُهُ مَالي ، وَوُدِّي ، ونُصْرَتي ... وَإِنْ كَانَ مَحْنيَّ الضُّلُوعِ عَلَى بُغْضِي» .

وقال الشافعيُّ -رحمه الله- :

« إنِّي أُحَيِّي عَدُوِّي عندَ رُؤْيَتِهِ ... لأَدْفَعَ الشَّرَّ عَنِّي بالتَّحِيَّاتِ

وأُظْهِرُ البِشْرَ للإنسانِ أُبْغِضُهُ ... كَأَنَّهُ قَدْ حَشَا قَلْبي مَحَبَّاتِ » (٣).

وقال ابن الحنفيَّة : « ليس بحكيمٍ مَنْ لَمْ يُعَاشِرْ بالمعروفِ مَنْ لَمْ يَجِدْ مِنْ مُعَاشَرَتِه بُدّاً، حتَّى يأتيَهُ اللهُ منه بالفَرَجِ أو المَخْرَجِ » (٤).

وقال ابنُ حِبَّانَ : « مَنِ التمس رضى جميع الناس ، التمس ما لا يُدْرَكُ ، ولكن يقصد العاقل رضى مَنْ لا يجد من معاشرته بُدّاً ، وإن دَفَعَهُ الوقتُ إلى استحسانِ أشياءَ من العاداتِ كان يستقبحها ، أو استقباحِ أشياء كان يستحسنها، ما لمْ يكنْ مأثماً ؛ فإن ذلك من المداراة ، وما أكثر من دارى فلمْ يسلمْ ! ، فكيف توجدُ السلامة لمن لم يُدارِ ؟! » (٥).

---

(١) « عين الأدب والسياسة » (ص١٥٤).

(٢) « عيون الأخبار » (٢٢/٣).

(٣) « ديوان الشافعيّ » (ص٢٨) ، جمع الزغبي.

(٤) « روضة العقلاء » (ص ٧٠).

(٥) المرجع السابق (ص ٧١، ٧٢).

وقال – أيضاً – : « مَنْ لمْ يعاشرِ الناسَ على لزومِ الإغضاء عمَّا يأتون منَ المكروه ، وترك التَّوقُّع لما يأتون من المحبوبِ – كان إلى تكديرِ عَيْشه أَقْرَبَ إلى صفائه ، وإلى أنْ يدفعَهُ الوقتُ إلى العداوة والبَغْضَاء أَقْرَبَ منه أنْ ينالَ منهم الوِدادَ وتَرْكَ الشَّحْناء ، ومن لمْ يُدارِ صديقَ السُّوءِ كما يُداري صديقَ الصِّدْقِ، ليس بحازمٍ .

ولقد أحْسَنَ الذي يقول :

تجنَّبْ صديقَ السَّوءِ واصْرِمْ[1] حبَالَهُ ... وإنْ لَم تجِدْ عنهُ مَحيصًا فَدارِه
وأَحْبِبْ حبيبَ الصِّدْقِ، واحذَرْ مِراءَهُ ... تَنَلْ منْهُ صَفْوَ الوُدِّ ما لم تُمَارِه»[2] .

ومن جميل ما ينسب لعليِّ بن أبي طالبٍ قوله :

« أُغْمِضُ عَيْني عَنْ أُمورٍ كثيرةٍ ... وإنِّي عَلَى تَرْكِ الغُمُوضِ قَدِيرُ
ومَا مِنْ عَمَى أُغْضِي ، ولكنْ لرُبَّما ... تَعَامَى وأَغْضَى المَرْءُ وهو بصيرُ
وأَسْكُتُ عَنْ أَشْيَاءَ لَوْ شئْتُ قُلْتُها ... وَلَيْسَ عَلَيْنَا في المَقَالِ أَمِيرُ
أُصَبِّرُ نَفْسِي باجْتِهَادِي وطَاقَتِي ... وإنِّي بأَخْلاَقِ الجميعِ خَبِيرُ»[3] .

ومن المداراة إذا حدَّثك جليسُكَ بكلامٍ غريبٍ ألاَّ تبادرَ إلى تكذيبه، وتفنيدِ قوله، فهذا الصَّنيع لا يَحْسُنُ أبداً ، وليس من صفاتِ عظماء الرجَّالِ وأكابرهم، فإنهم يتغاضون عن خطإٍ منْ في خُلُقه شيءٌ ، ويتعامون عن زلَّته، إلا إذا كان الخطأُ لا يُعْذَرُ فيه صاحبُهُ ، فإنهم يبيِّنون له الصَّواب بأجملِ عبارةٍ، وألطف إشارةٍ.

---

(١) اصْرِمْ : اقطعْ .
(٢) «روضة العقلاء» (ص ٧٢) .
(٣) «الديوان المنسوب للإمام عليٍّ – ﷺ –» (ص ١٠٦) .

قال عبد الله بن عَمْرو بن العاص : « ثَلاثةٌ مِنْ قُرَيْشٍ أحسنُها أخلاقاً ، وأصبحُهَا وجوهاً ، وأشدُّها حياءً ، إنْ حَدَّثوك لمْ يَكْذِبُوكَ ، وإنْ حدَّثْتَهُمْ بحقٍّ أو باطلٍ لم يُكَذِّبُوْكَ : أبو بكرٍ الصِّديقُ ، وعُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ ، وأبو عُبَيْدَةَ بْن الجرَّاحِ » [١] .

وقد تُصَادِفُ ذا يَدٍ باطشةٍ ، أو ذا لسانٍ عُرِفَ بنهشِ الأعراضِ ، فتمنحه جبيناً طلقاً ، وتـتجنَّب ما يكون له أثرٌ في نفسه عليك .

قال عقالُ بن شبة : « كنتُ رديفَ أبي ، فَلَقِيَهَ جريرٌ على بَغْلٍ ، فحيَّاه أبي وأَلْطَفَهُ ، فلمَّا مضى قلتُ لأبي : أَبَعْدَ ما قال لنا ما قال ؟!. قال أبي : أَفَأُوَسِّعُ جُرْحِي ؟!» [٢].

قال المهاجر بن عبد الله :

«وإنّي لأُقْصي المَرْءَ مِنْ غَيْرِ بِغْضَةٍ وأُدْني أَخَا البَغْضَاءِ منِّي عَلَى عَمْدِ
لِيُحْدِثَ وُدّاً بَعْدَ بَغْضَاءَ ، أَو أَرَى لَهُ مَصْرَعاً ، يُرْدِي بهِ اللهُ مَنْ يُرْدِي»[٣]



(١) « عيون الأخبار» (٢٣/٢) .
(٢) المرجع السابق (٢٢/٣) .
(٣) المرجع السابق (٢٢/٣) .

السَّمَاحَة

السَّماحةُ : هي التَّسهيل والتَّيسير عَلَى النَّاسِ في المعاملة. والرَّجلُ السَّمْحُ يرتاحُ له الناسُ، وتُحبُّه قلوبُهُمْ، ويتعاملون معه بحبٍّ، وقد دعا رسولُ الله -ﷺ- بالرَّحمةِ للرَّجلِ السَّمْحِ ، فقال : « **رَحِمَ اللهُ رجُلاً سَمْحًا إذا باع ، وإذا اشترى، وإذا اقتضى** » [١] ، وفي روايةٍ: « **وإذا قَضَى** » .

ويُعَلِّقُ ابنُ حَجَرٍ على رواية البخاريِّ بقولِه : « السُّهولة والسماحة متقاربان في المعنى ، والمراد بالسَّمَاحة ترك المضاجرة ونحوها ... وإذا اقتضى : أي طلب قضاء حقِّه بسهولةٍ ، وعدمِ إلحافٍ . وإذا قَضَى : أي أعطى الذي عليه بسهولةٍ بغير مَطْلٍ .

وفيه الحضُّ على السَّماحة في المعاملة ، واستعمال معالي الأخلاق ، وترك المشاحنة ، والحضُّ على ترك التضييق على النَّاسِ في المطالبةِ ، وأخذ العَفْو منهم » [٢] .

« إذَا المَرْءُ لَمْ يَدْنَسْ مِنَ اللُّؤْمِ عِرْضُهُ   فَكُلُّ رِداءٍ يَرْتَدِيْه جَمِيْلُ
وَإِنْ هُوَ لَمْ يَحْمِلْ عَلَى النَّفْسِ ضَيْمَهَا [٣]   فَلَيْسَ إِلَى حُسْنِ الثَّنَاءِ سَبِيْلُ»

ومن السماحة إنظار المُعْسر، أو التَّجاوز عن القَرْض، أو عن جُزْءٍ منه، فعَنْ أبي هريرة -رضي الله عنه- عن النَّبيِّ -ﷺ-: «**كانَ تاجرٌ يُدايِنُ النَّاسَ، فإذا رأى مُعْسراً قال لفتْيَانه: تَجَاوَزُوا عَنْهُ؛ لَعَلَّ اللهَ أَنْ يَتجاوزَ عنَّا، فتَجاوَزَ اللهُ عَنْهُ**»[٤] .

« مُثُلٌ كالنُّجومِ ، بَلْ هي أَعْلَى   ومَعَانٍ كالفَجْرِ في إشْرَاقِه !» .

---

(١) رواه البخاريُّ في البُيُوع (٢٠٧٦).

(٢) « فتح الباري » (٤/٣٠٢) عند شرحه للحديث .

(٣) **الضَّيْمُ** : الظلم .

(٤) رواه البخاريُّ - واللَّفظ له - في البُيُوع (٢٠٧٨) ، ومسلمٌ في المساقاة (١٥٦٢).

ومِـنَ السَّمَاحَة تركُ المداراة والمماراة ، قـال السَّائبُ بنُ عبد الله لرسول الله -ﷺ-: « كُنْتَ شـريكي في الجـاهليَّـةِ ، فكنتَ خَـيْـرَ شَـرِيْكٍ : كنتَ لاَ تُدَارِيْني، ولا تُمَارِيْني » (١) .

ومن صـورِ السَّـمَـاحَـة أنْ تحـرصَ على ألاَّ يقعَ النَّاسُ في الحَـرَجِ ، فـفي الصحيح أنَّ الصحابيَّ الجليل أبا الْيَسَر - ﷺ - كان له على رجلٍ قَرْضٌ ، فلمَّا ذهبَ لاستيفاء حقِّه ، اختبأ الغريمُ في دارِه ؛ لئَلاَّ يلقى أبا الْيَسَرِ ، وهو لا يملكُ السَّداد ، فلمَّا عَلِمَ أبو الْيَسَر أنَّ صاحِبَهُ يتخفَّى منه حياءً لعدمِ تمكُّنه من أداءِ ما عليه ، أتى بصحيفَةِ القَرْضِ فمَحَاهَ ، وقال : « إنْ وَجَدْتَ قَضَاءً فَاقْضِني، وإلاَّ فأَنت في حِلٍّ » (٢).

« لله تـلْـكَ الـدَّارُ أيّ مَـحَـلَّـةٍ للْجُـوْدِ ، والإفْـضَـالِ، والتَّكْريمِ!
هُمْ كَـالشُّـمُـوسِ مـهَـابةً وجَـلاَلَةً أَخْلاقُـهُـمْ في الحُسْنِ كالتَّسْنِيمِ » .

ومِـن السماحة أن تـردَّ القَـرْضَ بخيرٍ منـه ، أو الزيادة فيه ، فـقد كـان رسول الله -ﷺ- يـفعلُ ذلك ، ويقول: « **أَعْطِه؛ فإنَّ خَيْـرَ النَّاسِ أحْسَنُهُـمْ قَضَـاءً**» (٣).

وبالجـملة مَـنْ أراد سلوك الطريق السَّـهل إلى قلـوب النَّاسِ ، فليكنْ سَمْحاً في معاملته ، في دعوته ، في حواره ومناظرته ، سَمْحاً إذا ظُلِمَ ، أو جُهِلَ عليه، فالسَّماحَة من الإيمانِ؛ لقولِ رسولِ الله -ﷺ-: « **الإيمانُ: الصَّبْرُ والسماحةُ** » (٤).

---

(١) رواه ابن ماجَة في التِّجارات (٢٢٨٧) ، وصحَّحه الألبانيُّ في «صحيح ابن ماجَة » (٢٩/٢) برقم (١٨٥٣).

(٢) رواه مسلمٌ في الزُّهْد والرقائق (٣٠٠٦).

(٣) رواه البخاري في الوكالة (٢٣٠٦) عن أبي هريرة، ومسلم في المساقاة (١٦٠٠) عن أبي رافع .

(٤) رواه الطبرانيُّ في « مكارم الأخلاق » ، وأبو يعلى في « المسند » عن جابرٍ ، و صحَّحه الألبانيُّ في «صحيح الجامع » (٢٧٩٥) ، وفي « الصَّحيحة » (٥٥٤).

سلامة الصدر

من نعم الله على العبد المسلم أنْ يجعلَ صَدْرَهُ سليماً من الشَّحْناء والبغضاء ، نقيّاً من الغلِّ والحَسَد ، صافياً منَ الغَدْرِ والخيانة ، معافىً من الضَّغينة والحقْد ، ولا يَطْوي في قَلْبه إلاَّ المحبَّةَ ، والإشفاقَ على إخوانه المسلمين ، فبذلك يعلو قَدْرُهُ ، وتَشرفُ منزلتُهُ في القلوب ، وهذه مَنْقَبَةٌ وخَلَّةٌ كريمةٌ ، لا يَقْوَى عليها إلا ذوو الصدق والإخلاص ، ولا يصل إلى أعتابها إلا مَنْ جَاهَدَ نفسَهُ حقَّ الجهاد ، ومتى كان المرءُ سليمَ الصَّدر ، عَذَرَ النَّاسَ من أنفسهم ، والتمس الأعذار لأغلاطهم ، وأحسنَ إليهم ما أساءوا إليه ، فهو يهتدي بقول الله – سبحانه وتعالى – : ﴿**وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ (٣٤) وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ**﴾.

[فُصِّلَتْ : ٣٤ – ٣٥].

ويهتدي بحديث أبي هريرة – رضي الله عنه – أن رجلاً قال : « يا رسولَ الله ، إنَّ لي قَرَابَةً ، أَصِلُهُمْ ، ويَقْطَعُوني ، وأُحْسِنُ إليهم ، ويُسِيئُونَ إليَّ ، وأَحْلُمُ عَنْهُمْ، ويَجْهَلُونَ عليَّ » .

فقال رسول الله – ﷺ –: « **لَئِنْ كُنْتَ كَمَا قُلْتَ، فَكَأَنَّما تُسِفُّهُمُ المَلَّ**[1]، **ولا يزالُ معك مِنَ الله – سبحانه وتعالى – ظَهِيرٌ عليهم ، ما دُمْتَ عَلَى ذَلِكَ**»[2].

---

(١) **الملُّ** : هو الرَّمَادُ الحارُّ ، أي : كأنَّما تُطْعِمُهُمْ إيَّاه.

(٢) رواه مسلم في البرِّ والصِّلة (٢٥٥٨).

ومن جميل ما يذكر في هذا قول المقنَّع الكنْديِّ:

« وإنَّ الَّذي بَيْني وبَيْنَ بَني أبي وبَيْنَ بَني عَمّي – لَمُخْتَلفٌ جِدًّا

إذا قَدَحُوْا لي نَارَ حَرْبٍ بزَنْدهم [١] قَدَحْتُ لَهُم في كُلّ مَكْرُمَةٍ زَنْدا

وإنْ أكَلُوا لحْمي، وفَرْتُ لحُومَهُمْ وإنْ هَدَمُوْا مَجْدي بَنَيْتُ لَهُمْ مَجْدَا

وَلاَ أَحْمِلُ الحِقْدَ القَدِيْمَ عَلَيْهِمُ ولَيْسَ رَئِيْسُ القَوم مَنْ يَحْمِلُ الحِقْدَا»[٢].

وسلامة الصدر هي الصفةُ البارزةُ في حياة الصحابة ، والخَلَّةُ العظيمةُ التي رفعتْ من أقدارهم ، فقد أشار النَّبيُّ –ﷺ– إلى أحَد الصَّحابة ثلاثاً أنه من أهلِ الجنَّة، فذهب إليه عبدُ الله بن عَمْرو بن العاص – رضي الله عنهما –، وبات عنده ثلاثَ ليالٍ؛ كيْ ينظرَ ما هو العملُ الذي بلغ به إلى هذه المنزلة ، فلم يَرَهُ فعل كبيرَ عَمَلٍ، فعجب عبدُ الله منْ حاله ، وسأله : « ما الذي بلغ بك ما قال رسولُ الله –ﷺ–؟! » . فقالَ الرَّجلُ : «ما هو إلاَّ ما رأيتَ، غيْرَ أنِّي لا أجدُ في نفسي لأحدٍ من المسلمين غِشّاً ، ولا أحسُدُ أحداً على خيرٍ أعطاه اللهُ إيَّاهُ». فقال عبدُ الله: « هذا الذي بلغ بك ، وهي التي لا أُطيقُ؟! » [٣] .

وقال سُفْيانُ بْنُ دينارٍ لأبي بشيرٍ (وكان من أصحاب عليِّ بن أبي طالب رضي الله عنه) : « أخبرْني عَنْ أَعْمَالِ مَنْ كان قَبْلَنَا » . قال: « كانوا يَعْمَلون يسيراً، ويُؤْجَرُوْنَ كثيراً » . فقال سُفيانُ : « ولِمَ ذلك ؟! » . قال: « لِسَلامَةِ صُدُورِهِم! » [٤].

---

(١) الزَّنْدُ : العود الأعلى الذي يقدح به النَّار ، جمعه زناد، وأزناد.

(٢) « روضة العقلاء » (ص١٧٣ – ١٧٤) ، وانظر « بهجة المجالس » (٢/٧٨٤– ٧٨٥) .

(٣) أخرجه أحمد (٣/١٦٦) بإسناد صحيح .

(٤) أخرجه هنَّاد في « الزُّهد » (٢/٦٠٠) .

«فألْبَسَ اللهُ هاتيكَ العظامَ - وإنْ بَلِينَ تحتَ الثَّرى - عَفْواً وغُفْرانا
سَقَى ثرىً أُودِعُوهُ رَحْمَةً ، مَلأَتْ مَثْوَى قُبُورهِمْ رَوْحاً وريْحانا!»[1]

ومن درر العلاَّمة ابن قيِّم الجوزيَّة - يرحمه الله - قولـه في سلامة الصَّدر:
«مشهدٌ شريفٌ جدًّا لِمَنْ عَرَفَهُ ، وذاق حلاوتَهُ ، وهو ألاَّ يَشْتَغِلَ قلبُهُ وسرُّهُ بما نالَهُ من الأذى ، وطلبَ الوصول إلى دَرْك ثأْره ، وشفاءِ نَفْسه ، بل يُفرِّغُ قَلْبَهُ من ذلك ، ويرى أن سلامَتَهُ وبردَهُ وخُلُوَّهُ منه أنفعُ له ، وألَذُّ وأطيبُ ، وأعونُ على مصالحه ؛ فإن القلبَ إذا اشتغل بشيء ، فاته ما هو أهمُّ عنده ، وخيرٌ له منه ، فيكونَ بذلك مَغْبُونًا، والرشيدُ لا يرضى بذلك ، ويَرى أنَّه من تصرُّفات السَّفِيْه ، فأين سلامةُ القلبِ مِن امتلائه بالغِلّ والوساوسِ ، وإعمالِ الفكرِ في إدراكِ الانتقام ؟! »[2].

« إذا أَدْمَتْ قَوارِصُكُمْ فُؤَادي صَبَرْتُ عَلَى أَذَاكُمْ ، وانْطَوَيْتُ
وَجِئْتُ إِلَيْكُمْ طَلْقَ المُحَيَّا كأنِّي ما سَمِعْتُ ، ولا رأَيْتُ!»

(١) « الكامل في التاريخ » لابن الأثير (٩/٢٢٥)، وانظر « البداية والنِّهاية » لابن كثير (١٢/٣٠٠)
(٢) « مدارج السالكين » (٢/٣٢٠).

الطِّيبة

الطِّيبة: هي سلامةُ الصَّدْر ، وصفاءُ النَّفْسِ ، ورقَّةُ القَلْب . والطَّيِّبُ في اللُّغة : هو الطَّاهرُ والنَّظيفُ ، والحَسَنُ العفيفُ ، والسَّهْلُ واللَّيِّنُ ، وذو الأَمْنِ والخيرِ الكثيرِ ، والذي لا خُبْثَ فيه ولا غَدْرَ [١].

ومن كان هذا حاله كيف لا تُحبُّه قلوبُ النَّاس ، وهو قريبٌ مِنْ كُلِّ خيرٍ وبرٍّ ؟! .

ويتأصَّل خُلُق الطِّيبة التزكية للنفس ، ويُؤَكِّد هذا المعنى حديث أبي هريرة - رضي الله عنه - أنَّ رسولَ الله - صلى الله عليه وسلم - قال: « **يَعْقِدُ الشَّيْطَانُ على قَافِيَة [٢] رَأْسِ أَحَدِكُمْ -إذا هو نَامَ- ثَلاَثَ عُقَدٍ ، يَضْرِبُ عَلَى كُلِّ عُقْدَةٍ مَكَانَهَا : عَلَيْكَ لَيْلٌ طَوِيلٌ فَارْقُدْ ، فَإِن اسْتَيْقَظَ فَذَكَرَ اللهَ، انْحلَّتْ عُقْدَةٌ ، فَإِنْ تَوَضَّأَ انْحلَّتْ عُقْدَةٌ، فَإِنْ صَلَّى انْحَلَّتْ عُقَدُهُ كُلُّها ، فأَصْبَحَ نشيطاً طَيِّبَ النَّفْسِ، وإلاَّ أَصْبَحَ خَبِيْثَ النَّفْسِ كَسْلاَنَ** » [٣] .

يقول ابن حجرٍ -رحمه الله- في شرحه لهذا الحديث : « قوله : «**طيِّب النَّفْس**» : أي لسروره بما وفَّقه اللهُ من الطاعة ، وبما وعده من الثواب ، وبما زال عنه من عُقَدِ الشَّيطانِ، كذا قيل ، والذي يظهر أنَّ في صلاةِ اللَّيلِ سرّاً في طِيب النَّفس » [٤].

---

(١) « لسان العرب » مادة طب (١/٥٦٣) .

(٢) **قافيةُ الرَّأس** : آخرُهُ.

(٣) رواه البخاريُّ في التَّهجُّد (١١٤٢) ، وفي بَدْء الخلق (٣٢٦٩) ، ومسلمٌ في صلاة المسافرين (٧٧٦).

(٤) « فتح الباري » (٣/٢٦).

« قُلْتُ لِلَّيلِ : هَلْ بصَدْرِكَ سِرٌّ   يا خَفيَّ الأَخْبَارِ والأَسْرَارِ
قَالَ : لَمْ أَلْقَ في حَيَاتي سِرّاً   كَحَديثِ الأَحْبَابِ في الأَسْحَارِ! » .

والرَّجلُ الطَّيِّبُ يكون أكثرَ انشراحاً ، وأحسنَ بَشَاشَةً في أغلبِ الأحيان ، وقد لاحظ الصحابة - رضي الله عنهم - ذلك مرَّةً على رسول الله - ﷺ - فقال بعضهم: «نراك اليومَ طيِّبَ النَّفسِ » . فقال : « **أجَلْ ، والحمدُ لله** » . ثُمَّ أفاض بعضهم في ذكر الغنَى، فقال : « **لابأسَ بالغنَى لمَنِ اتَّقى ، والصِّحَّةُ لمَنِ اتَّقَى خيْرٌ من الغنَى ، وَطِيْبُ النَّفْسِ منَ النَّعيْمِ** »[1] .

« لانَت الأَخْلاَقُ منْهُمْ فَغَدَوْا   أنْجُمَا في النَّفْسِ ، والنُّبْلِ القَويْمِ
وتَغَالَتْ مُهَجٌ[2] في حُبِّهِمْ   فَهُمُو في كُلِّ قلْبٍ في الصَّميْمِ!» .

---

(١) رواه ابن ماجَة في التجارات (٢١٤١) عن يسار بن عُبَيْدٍ ، وصحَّحه الألبانيُّ في « صحيح ابن ماجَة» (٦/٢) (١٧٤١) ، وفي «صحيح الجامع » (٧١٨٢)، وفي «الصَّحيحة » (١٧٤).

(٢) **مُهَج**: جمع مُهْجَةٍ، وهي النَّفْسُ .

العَفْوُ

العَفْوُ مِنْ أعظمِ وسائل كَسْبِ القلوب ، وجَلْبِ المودَّة والمحبَّة بين العباد، وسببٌ لعلوِّ المنزلة ، وشرفِ النَّفْسِ وترفُّعِها ، ولا يَنْبُلُ الرجل حتى يكونَ متخلِّقاً بخُلُقِ العَفْوِ .

قال الله -سبحانه وتعالى-: ﴿ وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ (٣٤) وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾[فُصِّلَتْ : ٣٤-٣٥].

قال العلاَّمة محمَّدُ بن صالحٍ العُثَيْمين - يرحمه الله-: « جاءت النَّتيجةُ بإذا الفُجَائيَّة ؛ لأن (إذا) الفُجَائيَّة تدلُّ على الحدوث الفَوْرِيِّ في نتيجتها ﴿ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾ .

ولكن ليس كُلُّ أَحَدٍ يُوَفَّقُ لذلك ؛ قال - تعالى -: ﴿ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ »[١].

والعَفْوُ -إن كان في محلِّه- لا يزدادُ به صاحبه إلا عِزّاً ، فعن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله -ﷺ-: «وما زَادَ اللهُ عَبْداً بعفْوٍ إلا عِزّاً»[٢].

بل إنَّ العَفْوَ سببٌ لنيلِ المغْفِرَة منَ الله، قال رسول الله -ﷺ-: « ارْحمُوا تُرْحَمُوا ، واغْفِرُوْا يُغْفَرْ لَكُمْ »[٣].

(١) « مكارم الأخلاق » لابن عُثَيمين (ص٢٦).
(٢) رواه مسلم في البرِّ والصِّلة (٢٥٨٨).
(٣) أخرجه أحمد (٢/١٦٥، ٢١٩) ، والبخاريُّ في « الأدب المفرد » (٣٨٠) عن ابن عَمْرو ، وصحَّحه الألبانيُّ لشواهده في «صحيح الجامع» (٨٩٧) ، وفي «الصَّحيحة» (٤٨٢).

وما أجمل ما قيل في العفوِ من النَّظْم :

« سَأُلْزِمُ نَفْسي الصَّفْحَ عَنْ كُلِّ مُذْنِبٍ ... وَإِنْ كَثُرَتْ مِنْهُ إِلَيَّ الجَرَائِمُ
فَمَا النَّاسُ إِلاَّ وَاحِدٌ مِنْ ثَلاثَةٍ: ... شَرِيفٌ ، وَمَشْرُوفٌ ، ومِثْلٌ مُقَاوِمُ
فَأَمَّا الذي فَوْقي فَأَعْرِفُ فَضْلَهُ ... وأتبعُ فِيْهِ الحَقَّ ، والحَقُّ لازِمُ
وأَمَّا الذي دُوْني فَإِنْ قَالَ صُنْتُ عَنْ ... إِجَابَتِهِ عِرْضي ، وإِنْ لاَمَ لائِمُ
وأَمَّا الذي مِثْلي فَإِنْ زلَّ أَوْ هَفَا ... تَفَضَّلْتُ، إِنَّ الحِلْمَ لِلْفَضْلِ حَاكِمُ»[1].



(١) « روضة العقلاء » (ص ١٦٦).

سُرْعَةُ الفَيْئَةِ

سرعة الفَيْئَة : هي الرُّجوع إلى جادَّة الحقِّ والصَّواب على عَجَلٍ ، وتدلُّ على سَعَة صدر ورقَّة طَبْع صَاحِبها ، والأخ الذي يُسرع الفَيْئَة ، ويسابق إلى الصُّلْح تُحَبُّه قلوبُ النَّاسِ، أمَّا مَنْ يلجُّ في الخصومة، فَحَسْبُهُ قولُ النَّبيِّ -ﷺ-: «**أبْغَضُ الرِّجَالِ إلى الله الألَدُّ الخَصِمُ** » [١] .

وفسره ابنُ حجرٍ : « بأنَّه شديدُ العوجِ ، كثيرُ الخصومة » [٢].

ويصف النبيُّ -ﷺ- المنافقَ بأنه : « **إذا خَاصَمَ فَجَرَ** » [٣].

يقول ابنُ حجرٍ - يرحمه الله - في شرحه لهذا الحديث: «والفُجُور : الميلُ عن الحقِّ، والاحتيالُ في ردِّه » [٤] .

وتُعْرَضُ الأعمالُ على الله يَوْمَي الاثنين والخميس ، يغفر لكُلِّ مؤمنٍ إلاَّ المُتَخاصِمَيْن ، فيقال : « **أنْظِرُوا هَذَيْن حتَّى يَصْطَلِحَا** » [٥]. وفي روايةٍ: «**اتْرُكُوا هَذَيْنِ حتَّى يَفِيئَا** » [٦] ، « **وَخَيْرُهُمَا الذي يَبْدَأُ بالسَّلَامِ** » [٧].

«إنْ مَضَى بيننا وبينكَ عَتْبٌ حينَ شَطَّتْ [٨] عنَّا وعَنْكَ الدِّيارُ
فالقُلُوبُ التي تركْتَ شَظَايَا [٩] والدُّمُوعُ التي عهدت غِزَارٌ» .

---

(١) رواه البخاريُّ في المظالم (٢٤٥٧) ، وفي التَّفسير (٤٥٢٣) ، وفي الأحكام (٧١٨٨) ومسلمٌ في العلم (٢٦٦٨).

(٢) « فتح الباري » (١٨٨/٨).

(٣) رواه البخاريُّ في الإيمان (٣٤)، وفي المظالم (٢٤٥٩) ، وفي الجزية والموادعة (٣١٧٨) ، ومسلمٌ في الإيمان (٥٨).

(٤) « فتح الباري » (٩٠/١).

(٥) رواه مسلم في البرِّ والصِّلة (٢٥٦٥) عن أبي هريرة .

(٦) التخريج السابق.

(٧) تقدَّم تخريجه في باب «إفشاء السَّلام» .

(٨) **شطَّت** : بعدت .

(٩) **شظايا** : جمع شَظِيَّة، وهي الفِلْقة من الشيء.

ولمْ يخْـلُ بيتٌ من الخصومات ، بل لمْ يخْـلُ بيـتٌ من بيوتِ رسولِ الله -ﷺ- من الخصومات أيضاً ، ودعنا نرى شهَادَة عائشةَ - ﵂ - في ضرَّتهَا زيْنَب بنْت جَحْشٍ -﵂-، إلى مـا ذكـرت من خُلُق زينبَ ، تقـول: « ولَمْ أَرَ امرأةً قَطُّ خيراً في الدِّيْنِ منْ زينبَ، وأتقى لله، وأصدقَ حديثاً، وأَوصْلَ للرَّحِمِ، وأعظمَ صَدَقَةً، وأشدَّ ابتذالاً لنفسهَا في العمَلِ الذي تَصدَّقُ به وتقَرَّبُ به إلى اللهِ - تعالى- ما عدا سَوْرَةً من حِدَّةٍ [1] كانَتْ فيْهَا، تُسْرِعُ منها الفيْئَةَ» [2] .

«هُنَا الأَماني، هُنَا الأَمْجَادُ قَدْ رُفعَتْ | هُنَا المعالي ، هُنَا القُرْبَى ، هُنَا الرَّحِمُ
هُنَا القُلوبُ استـفـاقتْ منْ مَعَاقلهَا | هُنَا النُّفُـــوسُ أَتَتْ للحقِّ تَزْدَحِمُ
هُنَا رِواءٌ ، هُنَا فَـــجْــــرٌ ، هُنا أَمَلٌ | هُنَا كـتـابٌ ، هُنَا لَوحٌ ، هُنَا قَلَمٌ» .

ولقد ضرب أبو بكرٍ الصديقُ - ﵁ - مثَلاً رفيعاً في سُرعة الفيْئَة ، حين علم أنَّ مِسْطَحَ بْنَ أُثَاثَةَ - الذي يأكلُ من نفقة أبي بكرٍ - كانَ قد شاركَ في اتِّهامِ ابنته عـائشةَ -﵂- بحديث الإفْك ، فأقسمَ أبو بكرٍ ألاَّ يُنْفقَ عليه، وأنزل الله - سبحانه وتعالى-: ﴿**وَلا يَأْتَلِ أُوْلُوا الْفَضْلِ منكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُوْلِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ**﴾ [النور: ٢٢]. فما أن سمع أبو بكرٍ خاتمةَ الآية حتَّى صاح : « بلَى، واللهِ، إنِّي لأُحبُّ أن يَغْفرَ اللهُ لي». فَرَجَعَ إلى مِسْطَحٍ النفقةَ التي كان يُنفقُ عليه ، وقـال: « واللهِ، لا أَنْزِعُهَا منه أبَداً» [3].

---

(١) **الحِدَّة**: ما يعتري الإنسان من الغضب، وسَوْرة الغَضَب - بالفتح - : وثُوبُه.

(٢) رواه مسلم في فضائل الصَّحابة (٢٤٤٢) ، والنَّسائي في عشْرة النِّساء (٣٣٩٦) .

(٣) رواه البخاريُّ في المغازي (٤١٤١) ، وفي التفسير (٤٧٥٠) ، وفي الأيمان والنُّذور (٦٦٧٩) ، ومسلم في التَّوبة (٢٧٧٠) .

قَبول العذر

إذا أساءَ إليك أخوكَ، ثم جاء يعتذر عن إساءته فلا تجادلْه؛ فالعُذْرُ عند كرامِ النَّاسِ مقبولٌ، بل إنَّ قَبُولَ العُذْرِ -لأوَّل وَهْلَةٍ- من أفضلِ أخلاق أهْلِ الدُّنيا والدِّين.

ومتى تخلَّقَ المرءُ بهذا الخُلُق العظيم، فَلابُدَّ أنْ تُحبَّهُ قلوبُ النَّاسِ على اختلاف مَشَاربهم، وكُلُّ واحد منَّا لابُدَّ أن يَهْفُوَ، ويُحبُّ أنْ يجدَ من يعذره، لذلك جَاء في الحديث « **مَنْ أَقَالَ مُسْلماً، أَقَالَ اللهُ عَثْرَتَهُ** »[1].

قال بشَّارُ بن بُرْدٍ :

« إذا كُنْتَ في كُلِّ الأُمورِ مُعَاتبًا ... صديقَكَ، لَمْ تَلْقَ الذي لا تُعَاتِبُهْ

وإنْ أنتَ لَمْ تَشْرَبْ مرارًا عَلَى القَذَى[2] ... ظَمِئْتَ، وأيُّ النَّاسِ تَصْفُو مَشَاربُهْ؟!

فَعِشْ واحداً، أو صِلْ أَخَاكَ، فإنَّهُ ... مُقَارِفُ[3] ذَنْبٍ مَرَّةً ومُجَانِبُهْ» [4].

وقال ابنُ الرُّوميِّ :

« هُمُ النَّاسُ والدُّنيا، ولابُدَّ منْ قَذَىً ... يُلِمُّ[5] بعَيْنٍ، أَوْ يُكَدِّرُ مَشْرَبَا

ومنْ قلَّة الإنْصَافِ أنَّك تَبْتَغي الْـ ... ـمُهذَّبَ في الدُّنيا ولَسْتَ المُهَذَّبَا»[6].

ويتأكد قَبُولُ العُذْر في حقِّ صاحب المَنْزِلَة والوَجَاهَة الذي لا يُعرف بالشَّرِّ، فلا نُغْلظ عليه؛ لأنَّ الرسولَ -ﷺ- أَمَرَنا بإقَالَةِ عَثْرَتِهِ بقوله : « **أَقِيلُوا ذَوي الهيْئَاتِ عَثَرَاتِهِمْ إلاَّ الحُدُودَ** »[7].

---

(١) رواه أبو داود في البُيُوع (٣٤٦٠)، وابن ماجَة في التِّجَارات (٢١٩٩) عن أبي هريرة، وصحَّحه الألبانيُّ في « صحيح أبي داود » (٢٩٥٤)، وفي « صحيح الجامع » (٦٠٧١).

(٢) **القَذَى** : ما يقع في العينِ والشراب من ترابٍ وغير ذلك، والمفرد قذاة.

(٣) **مُقَارِفُ الذَّنْبِ** : مرتكبه.

(٤) «أدب الدنيا والدين» (ص١٧٨).

(٥) **يُلِمُّ** : ينزل.

(٦) «أدب الدنيا والدين» (ص١٧٤).

(٧) رواه أبوداود في الحدود (٤٣٧٥) عن عائشة، وصحَّحه الألبانيُّ في «صحيح أبي داود» (٢٩٥٤) وفي « صحيح الجامع » (١١٨٥)، وفي « الصَّحيحة » (٦٣٨).

قال ابنُ الرُّوميّ :

« فَعُذْرُكَ مَبْسُوطٌ لذَنْبٍ مُقَدَّمٍ وَوُدُّكَ مَقْبُولٌ بأَهْلٍ ومَرْحَبِ
ولَوْ بلَّغَتْني عنْكَ أُذُني أَقَمْتُها لَدَيَّ مَقَامَ الكَاشحِ[1] المُتَكَذِّبِ[2]
فَلَسْتُ بتَقْلِيبِ اللِّسَانِ مُصَارِماً خَليْلاً، إذا ما القلبُ لَمْ يَتَقلَّبِ» [3]

أخي، الكَمالُ عزيزٌ، وحَسْبُكَ أن يكونَ لكَ منْ أخيكَ أَكْثَرُهُ، كما قال أبو الدَّرْدَاءِ - رضي الله عنه -: «مُعَاتبةُ الأخِ خيرٌ منْ فَقْدِه، ومَنْ لَكَ بأخيْكَ كُلِّه؟!» [4].

قال الطَّائيُّ :

«ما غَبَنَ المغبونَ[5] مِثْلُ عَقْلِه مَنْ لَكَ يَوْماً بأخيكَ كُلِّه؟!» [6]

أخي ، اقبلْ عذرَ مَنْ يأتيكَ مُعْتذراً ؛ فإنك لنْ تجدَ - مَا بقيْتَ - مُهَذَّباً، لا يكون فيه عيبٌ .

قال العلاَّمة ابنُ قيِّم الجوزيَّة -يرحمه الله-:

« مَنْ أساء إليك ، ثم جاء يعتذر عن إساءته ، فإنَّ التَّواضعَ يُوْجبُ عليك قَبُولَ مَعْذرَته - حقّاً كانت أو باطلاً - وتَكِلُ سريرتَهُ إلى الله - تعالى- كما فَعَلَ رسولُ الله -ﷺ- في المنافقين الَّذين تخلَّفوا عنه في الغزْوِ، فلمَّا قَدمَ جاءُوا يَعْتَذرونَ إليه، فَقَبلَ أَعْذارَهُمْ، ووَكَّلَ سَرَائرَهُم إلى الله - تعالى- » [7].

وعلامةُ الكرمِ والتَّواضعِ أنَّكَ إذا رأيت الخَلَلَ في عُذْرِه، لا توقفُهُ عليه ،

---

(١) **الكاشح** : المُضْمِر العَدَاوَة، وبابه قطع، يُقال: كَشَحَ له بالعداوة وكاشحه بمعنىً.
(٢) يُقال: تكذَّب فلانٌ فهو متكذِّبٌ: إذا تكلَّف الكذب.
(٣) «أدب الدُّنيا والدِّين» (ص٣٣٧) .
(٤) «أدب الدنيا والدِّين» (ص١٧٣) .
(٥) **المغبون**: الخاسر والمنقوص، مأخوذٌ من الغَبْنِ، وهو الشِّراء بأضعافِ الثَّمنِ، أو البَيْع بأقلَّ من ثمن المثل.
(٦) «أدب الدُّنيا والدِّين» (ص١٧٣) .
(٧) انظر «صحيح البخاريّ» كتاب المغازي، رقم (٤٤١٨) .

ولا تحاجُّهُ ، وقل: يُمكن أن يكونَ الأمرُ كما تقولُ، ولو قُضِيَ شَيْءٌ لكَانَ، والمقْدورُ لا مَدْفَعَ له، ونَحْوَ ذلك » [1].

وما أحسن ما قاله الشافعيُّ -رحمه الله- :

« اقْبَلْ مَعَاذيْرَ مَنْ يأْتيكَ مُعْتَذراً ... إنْ برَّ [2] عنْدَكَ فيْمَا قَالَ أو فَجَرا [3]
لَقَدْ أطَاعَكَ مَنْ يُرْضِيْكَ ظَاهِرُهُ ... وَقَدْ أجلَّكَ مَنْ يعْصِيْكَ مُسْتَتِرا» [4].

وقال - أيضاً - :

« قيلَ لي: قَدْ أَسَى [5] عَلَيْكَ فُلانٌ ... ومُقَامُ الفَتَى عَلَى الذُّلِّ عَارُ
قُلْتُ : قَدْ جاءَني وأَحْدَثَ عُذْرًا ... دِيَةُ الذَّنْبِ - عِنْدَنا - الاعْتِذَارُ» [6].

ومن جميل ما جاء فى قبول العذر من النظم:

من اليَومِ تعاملنا ونطوي ما جرى منّا ... فلا كان ولا صار ولا قلتم ولا قلنا
وإن كان ولابد من العُتبى فبالحُسْنَى ... فقد قيل لنا عنكم كما قيل لكم عنّا

---

(١) « تهذيب مدارج السَّالكين» (٢/٦٨٧).
(٢) بَرَّ: صَدَقَ.
(٣) فَجَرَ : كَذَبَ.
(٤) « ديوان الشَّافعيِّ » (ص٦٠)، تحقيق البقاعي .
(٥) أَسَى عَلَيْكَ : أساءَ إِلَيْكَ ، وأَحْزَنَكَ.
(٦) «ديوان الشَّافعيِّ» (ص٦٢) ، تحقيق البقاعي .

السَّتْرُ

إنَّ سَتْرَك لعُيُوب إخوانك وهناتهم يقرِّبك من قلوبهم، بل ذلك مدعاةٌ لحبِّ النَّاس وإجلالهم لك، مع ما في السَّتْر من الأجْرِ العظيم والثَّواب الجزيلِ في الدنيا والآخرة، فالسَّتْر صفة في الإنسان يُحبُّها الله، فعن يَعْلَى -ﷺ- قال: قال رسول الله -ﷺ-: «**إنَّ اللهَ - عزَّ وجلَّ- حليمٌ حييٌّ ستِّيرٌ، يُحبُّ الحياءَ والسَّتْر**»[1].

قال الإمام السِّندي - رحمه الله - : «معناه أنَّه - سبحانه وتعالى - تاركٌ للقبائحِ، ساتر للعيوب والفضائح، يُحبُّ الحياءَ والسَّتْرَ من العبد؛ ليكونَ متخلِّقًا بأخْلاقه - تعالى -»[2].

وكفى بالسَّتْر ثمرةً أنَّه مَنْ سَتَرَ عَيْبَ غيره سَتَرَهُ اللهُ في الدُّنيا والآخرة؛ لحديث أبي هريرةَ - ﷺ - قال: قال رسول الله -ﷺ- : «**مَنْ سَتَرَ مُسْلماً سَتَرَهُ اللهُ في الدُّنيا والآخرةِ**»[3][*].

---

(١) رواه النسائي (١/٢٠٠) واللفظُ له، وأبو داود (٤١٢)، وصحَّحه الألبانيُّ في «صحيحِ سنن أبي داود» (٢/٧٥٨).

(٢) حاشية السندي على سنن النسائي (١/٢).

(٣) رواه مسلم مع شرح النووي (١٦/١٣٥).

(*) **فائدة**: هذا لا يعني أن نتركَ النصيحةَ لمن نستره فيما بيننا وبينه ، فإذا قبلَ النصيحةَ ، وانتهى عن فعله، وجب السَّتْر عليه ، كما أفاد النَّوويُّ وابن حجرٍ بقوله : « والذي يظهر أن السَّتْرَ محلُّه في معصيةٍ قد انقضتْ ، والإنكار في معصيةٍ قد حصلَ التَّلبُّس بها ، فيجب الإنكار ، وإلاَّ رفعَه إلى الحاكم » « فتح الباري » (٥/٩٧).

وقال النَّوويُّ -رحمه الله- في شرحه لهذا الحديث: «وأمَّا السَّتر المندوب إليه هنا، فالمراد به السَّتر على ذوي الهيئات ونحوهم ، ممن ليس معروفاً بالأذى والفساد ، فأما المعروف بذلك ، فيستحبُّ ألاَّ يستر عليهم ، بل ترفع قضيَّته إلى وليِّ الأمر - إنْ لم يخف من ذلك مفسدة - ؛ لأن السَّتر على هذا يطمعه في الإيذاء والفساد ، وانتهاك الحرمات ، وجسارة غيره على مثل فعله .. وأما جرح الرواة ، والشهود ، والأمناء على الصدقات والأوقاف والأيتام ، ونحوهم - فيجب جرحهم عند الحاجة، ولا يحلُّ السَّتْر عليهم ، إذا رأى منهم ما يقدح في أهليَّتهم ، وليس هذا من الغيبة المحرَّمة ، بل من النصحية الواجبة » . «شرح النَّوويِّ على مسلم» (١٦/١٣٥).

وأحقُّ النَّاس بالسَّتْر سَتْرُ المرء لعيوب نفسه ، التي سترها الله – تعالى – عليه كرامةً منه وإحساناً، فعن ابن عمر – رضي الله عنهما – قال: قال رسولُ الله – ﷺ –: «**إنَّ اللهَ يُدْني المُؤْمنَ ، فيـضعُ عليه كَنَفَهُ ويَسْتُرُهُ ، فيقولُ: أتَعْرفُ ذَنْبَ كَذَا؟. أتَعْرفُ ذَنْبَ كَذَا؟. فيقولُ** : أيْ ربِّ . حتَّى إذا قَرَّرَه بذُنُوبه ، ورأى في نَفْسه أنَّه هَلَكَ ، **قال: سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ في الدُّنيا ، وأنَا أغْفرُهَا لَكَ اليَوْمَ، فيُعْطَى كتَابَ حَسَنَاته**»[١].

« لَوْ أنَّ أنْفَاسَ العبَاد قَصَائدٌ   حَفَلَتْ بمَدْحكَ في جَلاَل عُلاَكَا
مَا أدْرَكَتْ مَا تَسْتَحقُّ وقَصَّرَتْ   عَنْ مَجْدكَ الأسْمَى، وحُسْن سَنَاكَا!».

وفي ستر المرء لنفسه يسلم من ألسنة النَّاس وسخط الله، فإنَّ اللهَ – سبحانه وتعالى – يستر من ستر نفسه، فلا ينبغي للمرء أن يَهْتكَ سترَ الله له؛ فعن أبي هريرة – رضي الله عنه – قال : سمعتُ رسولَ الله – ﷺ – يقول: «**كل أمَّتي مُعافَىً إلاَّ المُجاهرين، وإنَّ من المُجاهَرة أنْ يَعْمَلَ الرَّجُلُ باللَّيْل عملاً، ثُمَّ يُصبحَ وقَدْ سَتَرَهُ اللهُ، فيقول: يا فلانُ، عملتُ البارحةَ كذا وكذا ، وقد باتَ يَسْتُرُهُ رَبُّهُ، ويُصْبحُ يَكْشفُ سترَ الله عَنْهُ**»[٢].

وعن مريمَ بنت طارق: أنَّ امرأةً قالت لعائشة – رضي الله عنها –: «يا أمَّ المؤمنين، إنَّ كَرِيّاً[٣] أخذَ بساقي وأنَا مُحْرِمةٌ. فقالت: «حجْراً حجْراً حجْراً»[٤]. وأعرضتْ بوجْهها ، وقالتْ بكفِّها[٥]، وقالت: «يا نساءَ المؤمنين، إذا أذْنَبَتْ إحداكُنَّ ذنباً فلا تُخْبرَنَّ به النَّاسَ ، ولتستغفرنَّ اللهَ، ولتَتُبْ إليه؛ فإنَّ العبادَ يُعيرون ولا يُغيِّرونَ، واللهُ – سبحانه وتعالى – يُغيِّر ولا يُعيِّر»[٦] .

---

(١) رواه البخاريُّ (٢٤٤١) ومسلم (٢٧٦٨) .

(٢) رواه البخاريُّ – واللفظ له – في الأدب (٦٠٦٩)، واللفظ له، ومسلم (٢٩٩٠) .

(٣) **الكريّ والمُكاري** : الذي يكريك دابَّته ، أي يؤجرك إيَّاها .

(٤) **حجراً حجراً حجراً** : أي ستراً وبراءة من هذا الأمر .

(٥) **قالت بكفها** : أهوت بكفِّها .

(٦) «مكارم الأخلاق» للخرائطي .

ومنْ كرامةِ المسلمِ على اللهِ -سبحانه وتعالى- أنَّ اللهَ يتولَّى الدِّفاعَ عنه بنفسه، فعن ابن عمر -رضي الله عنهما- قال: قال رسول الله -ﷺ-: «**يا مَعْشَرَ مَنْ آمَنَ بلسانه، ولم يَدْخُلِ الإيمانُ قَلْبَهُ، لا تغْتَابوا المُسْلمينَ، ولا تَتَّبِعُوا عَوْرَاتِهِمْ؛ فإنَّه مَنِ اتَّبَعَ عَوْرَاتِهِمْ، يتَّبِعِ اللهُ عَوْرَتَهُ، ومَنْ يَتَّبِعِ اللهُ عَوْرَتَهُ يَفْضَحْهُ في بَيْتِه**»[1].

« وإذَا العِنَايَةُ لاَ حَظَتْكَ عُيُونُهَا نَمْ ، فَالحَوَادِثُ كُلُّهُنَّ أَمَانُ »

وكان من هَدْيِه -ﷺ- أنَّه يُؤثِر السَّتْرَ، حتى في حقِّ مُرتكِبِ الكبيرة؛ ولذلك كان يُوَجِّهُ بقوله: « **تَعَافَوُا الحُدُوْدَ فيما بَيْنَكُمْ** »[2].

وذلك لئلاَّ تُنقل إلى الإمام، فتفتضح بإقامةِ الحدِّ، لعلَّ صاحبَها يتوب، فيتوبُ اللهُ عليه.

ولقد بلغ من حرصِ رسول الله -ﷺ- على كرامة المسلم، وسلامة نفسيَّته أنَّهُ حين جاءه رجلٌ يقولُ: «يا رسولَ الله، إنيِّ أَصَبْتُ حَدّاً، فأَقِمْهُ عَلَيَّ».

يقول أنس بن مالكٍ: « ولمْ يسألْهُ عنه»[3]. وبعد الصَّلاة كرَّر الرَّجلُ مَقَالَتَهُ، فقال رسول الله -ﷺ-: « **أليس قد صلَّيْتَ معَنا؟** ».

قال: « نعم ». قال: « **فإنَّ اللهَ قَدْ غفَرَ لك ذَنْبَكَ** »[4].

« ولمَّا قَسَا قَلْبي ، وَضَاقَتْ مذاَهبي جَعَلْتُ رَجَائي نَحوَ عَفْوِكَ سُلَّمَا
تَعَاظَمَني ذَنْبِي ، فَلَمَّا قَرَنْتُهُ بِعَفْوِكَ -رَبِّي- كَانَ عَفْوُكَ أَعْظَمَا ».

(١) رواه أبو داود (٤٨٨٠)، وأحمد في « المسند » (٤/٢٢٠) عن أبي بَرْزَةَ الأَسْلَمِيِّ، والتِّرمذيُّ (٢٠٣٢) عن ابن عمر، وصحَّحه الألبانيُّ في « صحيحِ الجامع » (٧٩٨٤) و (٧٩٨٥).

(٢) رواه أبو داود (٤٣٧٦)، والنَّسائيُّ (٤٨٩٠) عن ابن عمْرو، وصحَّحه الألبانيُّ في «صحيح سنن أبي داود» (٣٦٨٠)، وفي « صحيح الجامع » (٢٩٥٤)، وفي «الصَّحيحة» (١٦٣٨).

(٣) **فائدة**: قال الحافظ ابن حجرٍ -رحمه الله-: « وإنمَّا لم يستفسره -أي لم يسأله ما هو الذنب الذي اقترفه؟- إمَّا لأن ذلك يدخل في التَّجسُّسِ المنهي عنه، وإمَّا إيثاراً للسَّتر، ورأى أن في تعرُّضه لإقامة الحدِّ ندماً ورجوعاً ». «الفتح» (١٢/١٣٤).

(٤) رواه البخاريُّ (٦٨٢٣) واللفظ له، ومسلم (٢٧٦٤).

العفّة

الناس يحبُّون من تعفُّ نَفْسُهُ ، ولم تتطلَّعْ إلى ما في أيديهم ؛ لأنَّهم جُبلُوا على حُبِّ المالِ ، فإذا أنت نازعتهم فيما يُحبُّون ملُّوك ؛ لهذا كان الزُّهد عمَّا في أيديهم أقصر طريقٍ إلى قلوبهم ، فعن أبي العبَّاسِ سَهْلِ بْن سَعْدٍ السَّاعديِّ – رضي الله عنه – قال : جاء رجلٌ إلى النبيِّ – ﷺ – فقال: « يا رسولَ الله، دُلَّني عَلَى عَمَلٍ ، إذا عَمِلْتُهُ أَحَبَّني اللهُ ، وأَحَبَّني النَّاسُ » . فقال: « **ازْهَدْ في الدُّنيا يُحبَّكَ اللهُ ، وازْهَدْ فيما عنْدَ النَّاسِ يُحبَّكَ النَّاسُ** » [1] .

وفي وصيَّة جبريلَ لرسول الله – ﷺ – : « **وَاعْلَمْ أنَّ شَرَفَ المُؤْمنِ قِيَامُهُ باللَّيْلِ، وَعِزَّهُ اسْتِغْنَاؤُهُ عَنِ النَّاسِ** » [2] .

وفي وصيَّةٍ موجزةٍ قال رسول الله – ﷺ – : « **وأَجْمِعِ اليَأْسَ عمَّا في أَيْدي النَّاسِ** » [3] .

ومن جميلِ ما قيل في العفَّة:

« ومَا مَدَدْتُ يَدي إلاَّ لخَالقِهَا ... ومَا طَلَبْتُ مِنَ المنَّانِ دِيْنَارَا » .

وقال آخرُ:

« لَيْتَ كَفّاً مُدَّتْ إِلَيْكَ بِذُلٍّ ... قُطِعَتْ بالحُسَامِ[4] قَبْلَ الوُصُولِ! » .

(١) رواه ابن ماجَة في الزُّهد (٤١٠٢) ، والحاكم في الرقاق (٣١٣/٤) ، وصحَّحه الألبانيُّ في « صحيح الجامع» (٩٢٢) ، وهو في « الصَّحيحة » (٩٤٤) .

(٢) رواه أبو نعيم في « الحلية » عن عليٍّ ، والشيرازي في « الألقاب» ، والحاكم في « المستدرك » عن سهلٍ الساعدي ، والبيهقيُّ في « الشُّعب »عن سهلٍ وعن جابرٍ ، وحسَّنه الألبانيُّ في « صحيح الجامع » (٧٣) ، وفي « الصحيحة » (٨٣١) .

(٣) رواه ابنِ ماجَة في الزُّهد (٤١٧١) ، وأحمد في« المسند »(٤١٢/٥) عن أبي أيُّوبَ . انظر «صحيح ابن ماجة » (٤٠٥/٢)، وصحَّحه الألبانُي في « صحيح الجامع» (٧٤٢) ، وفي «الصَّحيحة » (٤٠١) .

(٤) **الحُسام** : السَّيْف القاطع .

ولقد حرص الرسول – ﷺ – على تربية أصحابه على خُلُق العفَّة ، حتى إنَّ أحدهم كان يَسْقُطُ سَوْطُهُ بعد ذلك فما يسأل أحداً يناوله إيَّاه ، ففي حديث عَوْف بن مالك – رضي الله عنه – قال : كنَّا عندَ رسول الله – ﷺ – تسعةً ، أو ثمانيةً ، أو سبعةً، فقال : « ألا تُبَايِعُونَ رسولَ الله ؟! » . وكُنَّا حَدِيثي عَهْدٍ ببيعة ، قلنا : «قَدْ بَايَعْنَاكَ ، يا رسولَ الله » . ثم قال : « ألا تُبايعون رسولَ الله؟!» . فَبَسَطْنا أيدينا، وقلنا : «قَدْ بَايَعْنَاكَ – يا رسولَ الله –، فَعَلامَ نُبَايِعُكَ؟! » . قال: «**عَلَى أَنْ تَعْبدوا اللهَ ، وَلا تُشْرِكوا به شيئاً ، والصَّلوات الخَمْسِ ، وتُطيعوا – وأسرَّ كلمةً خَفيَّةً – ولا تَسْأَلوا النَّاسَ شيئاً** » .

يقول راوي الحديث : « فَلَقَدْ رَأَيْتُ بعضَ أُولئكَ النَّفَرِ يسقطُ سَوْطُ أَحَدِهِمْ، فما يسألُ أَحَداً يناولُهُ إيَّاهُ » [1].

قال الشَّافعيُّ –رحمه الله– :

« أَمَتُّ مَطَامِعي ، فَأَرَحْتُ نَفْسي ... فَإِنَّ النَّفْسَ مَا طَمِعَتْ تَهُونُ
وأَحْيَيْتُ القُنُوعَ ، وكَانَ مَيْتاً ... فَفي إحْيَائه عِرْضٌ مَصُونُ
إذَا طَمَعٌ يَحُلُّ بِقَلْبِ عَبْدٍ ... عَلَتْهُ مَهَانَةٌ ، وعَلاهُ هُونُ [2] » [3].

ومنَ اللَّطائف أنَّ الصحابيَّ الجليلَ عبدَ الله بْنَ الأَرْقَم – رضي الله عنه – طلب بعيراً من بيت المال، فَعُرِضَ عليه جَمَلٌ منَ الصَّدَقَة فأبى، واستنكر أَنْ يُعْرَضَ عليه ذلك، وقالَ لصاحبه: «أتُحبُّ أنَّ رجلاً بادناً [4] في يومٍ حارٍّ غسل لك ما تحتَ إزارِه ورفغَيْه، ثم أعطاكه فشربته؟!» . فغضبَ الرَّجلُ، وقال: «يغفرُ اللهُ

---

(١) رواه مسلم في الزكاة (١٠٤٣).
(٢) **هُون** : مهانة وخزي وذلٌ .
(٣) «ديوان الشافعي» (ص١١٥) ، تحقيق البقاعي .
(٤) **بادناً**: سميناً ضخماً.

لك، أتقولُ لمثلي هذا ؟! » . فقالَ عبدُ الله بْنُ الأَرْقَمِ : « إنَّما الصَّدَقَةُ أوساخُ الناسِ، يغسلونها عنهم ! » [١] .

« هُمُ القَوْمُ ، إنْ قَالُوا أصَابُوا ، وَإنْ دُعُوا أَجَابُوا ، وإنْ أعْطَوْا أَطَابُوا وأَجْزَلُوا
ولا يستطيعُ الفَاعِلُوْنَ فَعَالَهُمْ ولو حَاوَلُوا في النَّائِبَاتِ وأَجْمَلُوا
بهاليلُ [٢] في الإسلامِ سَادُوْا ، ولم يَكُنْ لأَوَّلِهِمْ في الجَاهِلِيَّةِ أَوَّلُ ! » .

---

(١) « الموطأ » (٢/١٠٠١) الحديث (١٥) ، وقال الأرناؤوط في حاشية «جامع الأصول» (١٠/١٥٠) : «إسناده صحيح».

(٢) **بهاليل** : جمع بُهْلولٍ : وهو السيد الجامع لصفات الخير ، المَرِح الضحَّاك . انظر «ما تلحن به العامَّة» للكسائي (ص ١١١).

الجُود

جُبِلَت القلوبُ على حُبِّ الجَوَدة ، فالجَوَاد محبوبٌ من الله ، محبوبٌ من النَّاسِ ، ويكفي الجود أنَّه صفةٌ منْ صفات الله – سبحانه وتعالى – ، قال رسول الله – ﷺ – : « **إنَّ اللهَ – تعالى – جَوَادٌ ، يُحبُّ الجُودَ ، ويُحبُّ معاليَ الأخلاقِ، ويكْرَهُ سَفْسَافَهَا** » [١] .

وقال –ﷺ–: « **إنَّ اللهَ كريمٌ، يُحبُّ الكُرَمَاءَ، جَوَادٌ يُحبُّ الجَوَدَةَ**» [٢] .

وكان رسول الله –ﷺ– جَوَاداً ، وجُودُهُ كان سبباً في دُخُولِ كثيرٍ منَ النَّاسِ في دينِ الله أفواجاً ، فعن أنس بن مالك – رضي الله عنه – قال: « كان رسولُ الله – ﷺ – أَحْسَنَ النَّاسِ، وأَجْوَدَ النَّاسِ، وأَشْجَعَ النَّاسِ» [٣] .

وكان –ﷺ– لا يردُّ أحداً يسأله، فعن جابر بن عبد الله – رضي الله عنه – قال: «ما سُئِلَ النَّبيُّ –ﷺ– عَنْ شيءٍ قَطُّ ، فقال : لا » [٤] .

« إذَا المَرْءُ لَمْ يُدْنَسْ منَ اللُّؤْمِ عِرْضُهُ ... فَكُلُّ رداءٍ يَرْتَدِيْهِ جَمِيْلُ
إِذَا قُلْتَ : (لا) في كُلِّ شَيْءٍ سُئِلْتَهُ ... فَلَيْسَ إِلى حُسْنِ الثَّنَاءِ سَبِيْلُ» .

وقال ابن عبَّاسٍ – رضي الله عنهما –: « ثلاثَةٌ لا أُكَافِئُهمْ : رجلٌ بَدَأَني بالسَّلامِ ، ورجلٌ وسَّع لي في المجلسِ، ورجلٌ اغبرَّتْ قَدَمَاهُ منَ المشيِ إليَّ إرادةَ السَّلامِ عليَّ، أمَّا الرَّابع فلا يُكافِئُهُ عنِّي إلاَّ اللهُ » .

---

(١) رواه البيهقيُّ في «الشُّعب» عن طلحةَ بن عُبيد الله ، وأبو نعيم في « الحلية » عن ابن عبَّاسٍ ، وصحَّحه الألبانيُّ في « صحيح الجامع » (١٧٤٤) ، وفي « الصَّحيحة » (١٦٢٧) .

(٢) رواه ابن عساكرٍ ، والضياء عن سعد بن أبي وقَّاصٍ ، وصحَّحه الألبانيُّ في « صحيح الجامع » (١٨٠٠) ، وفي « الصَّحيحة » (١٣٧٨) و(١٦٢٦) .

(٣) رواه البخاريُّ في الجهاد (٢٨٢٠) ، وفي الأدب (٦٠٣٣) ، ومسلمٌ في الفضائل (٢٣٠٧) .

(٤) رواه البخاريُّ في الأدب (٦٠٣٤) ، ومسلم في الفضائل (٢٣١١) .

قيل : « مَنْ هوَ ؟ » . قال : « رجلٌ نزَلَ به أَمْرٌ ، فباتَ لَيْلَتَهُ يُفكِّرُ بِمَنْ يُنْزِلُهُ ، ثُمَّ رآني أَهْلاً لحاجتِهِ ، فأَنْزَلَهَا بي » [١].

وله – رضي الله عنه – شعرٌ في هذا المعنى ، يقولُ فيه :

« إذا طَارِقَاتُ الهَمِّ ضَاجَعَتِ الفَتَى وأَعْمَلَ فِكْرَ اللَّيْلِ ، واللَّيلُ عَاكِرُ
وبَاكَرَني في حَاجَةٍ ، لم يَجِدْ بِهَا سِوَايَ ، ولا مِنْ نَكْبَةِ الدهْرِ نَاصِرُ
فَرَّجْتُ بمالي هَمَّهُ مِنْ مَقَامِهِ وزَايَلَهُ [٢] هَمٌّ طروقٌ مُسَامِرُ
وكَانَ لَهُ فَضْلٌ عَلَيَّ بِظَنِّهِ بِيَ الخَيْرَ ، إنِّي لِلَّذي ظَنَّ شَاكِرُ » [٣]

وقال ابنُ حبَّانَ –رحمه الله– : « فالواجب على العاقل –إذا أمكنه اللهُ – تعالى – من حُطَام هذه الدُّنيا الفانية ، وعَلِمَ زَوَالَهَا عنْه ، وانقلابها إلى غيره، وأنَّه لا يَنْفَعُهُ في الآخرةِ إلا ما قدَّمَ من الأعمالِ الصَّالحة– أَنْ يبلغَ مجهوده في أداء الحقوق في ماله ، والقيامِ بالواجبِ في أَسبابه ، مبتغيًا بذلك الثوابَ في العُقْبَى، والذِّكْرَ الجمَيل في الدُّنيا ، إذ السَّخاء محبَّةٌ ومحمدةٌ ، كما أنَّ البُخْلَ مذمَّةٌ ومبْغَضَةٌ، ولا خيرَ في المال إلاَّ مع الجودِ ، كما لا خير في المنطق إلا مع المَخْبَر » [٤].

وقال أيضاً : « أَجْوَدُ الجود مَنْ جَادَ بماله ، وصَانَ نَفْسَهُ عَنْ مالِ غيرِه، ومَنْ جَادَ سَادَ ، كما أنَّ مَنْ بَخِلَ رَذُلَ » [٥].

« اللهُ أَعْطَاكَ ، فَابْذُلْ منْ عَطِيَّتِهِ فَالمَالُ عَارِيَةٌ، والعُمْرُ رَحَّالُ
المَالُ كَالمَاءِ، إنْ تَحْبِسْ سَوَاقِيَهُ يَأْسَنْ ، وإنْ يَجْرِ يَعْذُبْ مِنْهُ سَلْسَالُ » .

---

(١) « عيون الأخبار » (١٧٦/٤) .
(٢) زايَلَهُ: فارقَهُ.
(٣) « العمدة في محاسن الشعر ، وآدابه ، ونقده » لابن رشيق (٣٧/١) .
(٤) « روضة العقلاء » (ص٢٣٥) .
(٥) المرجع السابق (ص٢٣٦) .

وأعظم الجود وأعلاه جود المرء عمًّا في أيدي النَّاسِ ، فلا يلتفت إليه ، ولا يستشرف له بقلبه ، ولا يتعرَّض له بحاله ، ولا بلسانه .

قال ابنُ المُقفَّع : « عَوِّدْ نفسَكَ السَّخاءَ ، واعْلَمْ أنَّه سخاءان : سَخَاوَةُ نَفْسِ الرَّجُلِ بما في يديه ، وسَخَاوتُهُ عمَّا في أيدي النَّاسِ ، وسَخَاوَةُ نَفْسِ الرَّجُلِ بما في يديه أكثرُهُمَا ، وأقربهما من أن تدخلَ في بابِ المفاخرة، وتركُهُ ما في أيدي الناس أَمْحَضُ في التَّكرمِ ، وأبرأُ منَ الدَّنسِ، فإنْ هو جمعهما ، فبذل وعَفَّ ، فقد اسْتَكْمَلَ الجودَ والكرمَ » [1].

«وأُعْرِضُ عن ذي المال، حتَّى يُقالَ لي: لَقَدْ جاءَ هذا جَفْوَةً وتَعَظُّمَا
وما بي جَفَاءٌ عنْ صَديقٍ ولا أخٍ ولكنَّه فِعْلي إذا كُنْتُ مُعْدمَا»[2].

وقال شيخ الإسلام ابنُ القيِّم -رحمه الله-: « فلسانُ حالِ القَدَرِ يقولُ للفقير الجوَاد : وإنْ لَمْ أُعْطِكَ ما تجودُ به على النَّاسِ ، فجُدْ عليهم بزُهْدِكَ في أموالِهِمْ، وما في أيديهم - تَفْضُلْ عليهم ، وتُزاحِمْهُمْ في الجودِ ، وتَنْفَرِدْ عنهم بالرَّاحة » [3].

ومن اللطائف أنَّ الخليلَ بن أحمدَ - أحد أئمَّة اللُّغة وصاحبَ العَرُوضِ وأحد الفقراء البائسين - اسْتُدْعِيَ من قِبَلِ سُليمان بن حبيب الأزديِّ - والي فارس والأهواز - وذلك بلهجةٍ شديدةٍ، فكتبَ الخليلُ ردَّ جوابِهِ شِعْرًا :

«أَبْلِغْ سليمانَ أنِّي عنه في دَعَةٍ وفي غنًى غيرَ أنِّي لستُ ذا مالِ
سخًا بنفسي أنِّي لا أرى أحدًا يموتُ هُزْلاً، ولا يبْقَى على حالِ»

---

(١) « الأدب الصغير ، والأدب الكبير » (ص١٤٤) .

(٢) **المُعْدم**: الفقير، يُقال: أَعْدَمَ الرجلُ: إذا افتقر.

(٣) « مدارج السالكين » (٢/٢٨٢) .

الشَّفَاعةُ الحسَنَة

الشفاعةُ طريقٌ مُعَبَّدَةٌ لقلوب الناس، ترفعُ مِنْ شَأْنك في قلوبهم، وسببٌ عظيمٌ في توطيد عُرَا المحبَّة بين الشَّافعِ والمشفوعِ له ما دامت شفاعةً حسنةً [١]: من إحقاق حقٍّ ، ونُصْرَةِ مظلومٍ ، وإعانة ضعيفٍ ، ومَشْيٍ معَ الرَّجلِ إلى ذي سُلطان ، ونحو ذلك . قال الله – سبحانه وتعالى–: ﴿ **مَن يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُ نَصِيبٌ مِّنْهَا** ﴾ [النساء : ٨٥].

وعن أبي مُوسَى الأشعريِّ – رضي الله عنه – قال : كانَ رسولُ الله – ﷺ – إذا أتاه طالبُ حَاجَة ، أقبلَ عَلَى جُلَسَائِه ، فقالَ : « **اشْفَعُوا فَلْتُؤْجَرُوا، ولْيَقْضِ اللهُ عَلَى لِسَانِ نبيِّه ما شَاء** » [٢].

ففي هذا الحديث الحثُّ على الشَّفَاعَة ، وإنْ لَمْ تُقْبَلْ فالشافعُ مأجورٌ على كُلِّ حالٍ، وقد شفعَ رسولُ الله – ﷺ –، إلاَّ أَنَّ شفاعتَهُ لمْ تُقْبَلْ عنْدَ امرأةٍ كانت أَمَةً فَأُعْتِقَتْ ، ومع ذلك لَمْ يُثَرِّبْ عليها رسولُ الله – ﷺ – .

فعن ابن عبَّاسٍ – رضي الله عنهما – أنَّ زوجَ بَرِيْرَةَ كان عَبْداً، يُقال له مُغيثٌ، كأنِّي أنظرُ إليه يطوفُ خَلْفَهَا يَبْكي، ودُمُوعُه تَسِيلُ عَلَى لحيَته، فقال النَّبيُّ –ﷺ– لعبَّاسٍ: « **يا عبَّاسُ، أَلا تَعْجَبُ من حُبِّ مُغيثٍ بَرِيْرَةَ ، ومِنْ بُغْضِ بَرِيرَة مُغيثاً!** » . فقال النَّبيُّ –ﷺ– : « **لَوْ رَاجَعْتِه ؟** » . قالَتْ : « يا رسولَ الله،

(١) **الشفاعة الحسنة** : هي التي ليس فيها إضرارٌ بأَحَدٍ ، ولا سَلْبٌ لحقوق أَحدٍ ، ولا تعدٍّ على حدٍّ من حدود الله ، ولا تعطيلٌ لحدٍّ ، فالحدود متى وصلتْ إلى الحاكمِ ، فلا شفاعةَ فيها لقول النَّبيِّ –ﷺ– لأُسامَةَ لَمَّا شفع في شأن المخزوميَّة التي سَرَقَتْ :« **أَتَشْفَعُ في حَدٍّ مِنْ حُدُود الله** ؟! » .
أخرجه البخاريُّ (٦٧٨٨) ، ومسلمٌ (١٦٨٨) ، أخرجاه في الحدود عن عائشة –رضي الله عنها–.

(٢) رواه البخاريُّ في الزكاة (١٤٣٢) ، وفي الأدب (٦٠٢٧) و(٦٠٢٨) ، ومسلمٌ في البرِّ والصِّلة (٢٦٢٧) .

تأمُرني ؟». قال : « **إنّما أنَا أشْفَعُ** » . قَالَتْ: «فلاَ حَاجَةَ لي فيه» [١].

وما أجمل ما قاله الشّافعيُّ:

« وأَدِّ زَكَــاةَ الجَــاه ، واعْلَمْ بِأَنَّهَــا كَـمِـثْلِ زَكَاة المَالِ تَمَّ نصَـابُهَـا [٢] » [٣].

وكتب الحَسَنُ بْنُ سَهْلٍ كتابَ شفاعة ، فجعل الرَّجل يشكره ، فقال الحَسَنُ : « يا هذا ، عَلاَمَ تَشْكُرُنَا ؟ ! ، إنَّا نَرَى الشَّفَاعَاتِ زَكَاةَ مُرُوءَتِنَا » .

ثم أنشأ يقول:

« فُرِضَتْ عَلَيَّ زَكَاةُ مَا مَلَكَتْ يَدِي وزَكَــاةُ جَـاهي أنْ أُعِـيْنَ وأَشْـفَـعَـا
فَإذَا مَلَكْتَ فَجُدْ ، فَإنْ لَمْ تَسْتَطِعْ فَـاجْـهَدْ بِوُسْعِكَ كُلِّهِ أَنْ تَشْفَعَا» [٤].

---

(١) رواه البخاريُّ في الطلاق (٥٢٨٣).
(٢) **النِّصَاب** : القَدْرُ الذي تجبُ عنده الزّكاة **تمّ نصابها** : اكتملَ وأصبَحَ من الواجبِ دَفْعُ الزّكاةِ .
(٣) « ديوان الشّافعي» (ص٢٧) تحقيق البقاعي .
(٤) « وفيات الأعيان » (١٢٠/٢).

اصطناع المعروف

جُبِلَت القلوبُ على حُبِّ صاحب المعروف ، فهو محبوبٌ مِنَ النَّاسِ، بل هو أحبُّهم إلى الله لقول رسول الله -ﷺ- : « **أَحَبُّ النَّاسِ إلى الله أَنْفَعُهُمْ ، وأَحَبُّ الأعمالِ إلى الله سُرُورٌ تُدْخِلُهُ عَلَى مُسْلِمٍ ، أو تَكْشِفُ عنه كُرْبَةً ، أو تَقْضِي عَنْهُ دَيْناً ، أو تَطْرُدُ عنه جُوعاً ، ولأَنْ أَمْشِيَ مَعَ أخي المُسْلِمِ في حَاجَةٍ أَحَبُّ إليَّ مِنْ أَنْ أَعْتَكِفَ في المسجد شَهْراً ، ومَنْ كَفَّ غَضَبَهُ ، سَتَرَ اللهُ عَوْرَتَهُ ، ومَنْ كَظَمَ غَيْظاً -ولو شَاءَ أنْ يُمْضِيَهُ أَمْضَاهُ- مَلأَ اللهُ قَلْبَهُ رضىً يَوْمَ القيَامَةِ ، ومَنْ مَشَى مَعَ أخيه المسلم في حاجته حتَّى يُثبتَها[1] له، أثبتَ اللهُ قَدَمَهُ يوم تزولُ الأقدامُ، وإنَّ سُوْءَ الخُلُقِ لَيُفْسِدُ العَمَلَ ، كما يُفْسِدُ الخَلُّ العَسَلَ** »[2].

وصاحب المعروف محفوظٌ من الله بالوقاية من سُوْءِ المَصْرَعِ في الدُّنيا لقولِ رسول الله -ﷺ-: « **عَلَيْكُمْ بِاصْطِناعِ المَعْرُوْفِ ؛ فإنَّهُ يَمْنَعُ مَصَارِعَ السُّوْءِ** »[3].

وصاحب المعروف - أيضاً - خيرُ النَّاسِ لقولِ رسول الله -ﷺ-: « **خَيْرُ النَّاسِ أَنْفَعُهُمْ للنَّاسِ** »[4].

---

(١) **يثبتها** : أي يقضيها.

(٢) رواه الطَّبَرانيُّ في « الكبير » ، وابن أبي الدُّنيا في « قضاء الحوائج » عن ابن عُمَرَ، و حسَّنه الألبانيُّ في « صحيح الجامع » (١٧٦) ، وفي « الصَّحيحة» (٩٠٦) .

(٣) رواه ابن أبي الدُّنيا في « قضاء الحوائج » عن ابن عبَّاس، و صحَّحه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (٤٠٥٢) ، وفي « الصَّحيحة » (١٩٠٨).

(٤) رواه الطَّبَرَانيُّ في « الكبير » ، و الدَّارقطنيُّ ، والبيهقيُّ في « الشُّعب » عن جابرٍ، و صحَّحه الألبانيُّ في «صحيح الجامع » (٣٢٨٩) ، وفي « الصَّحيحة » (٤٢٦).

« النَّاسُ بالنَّاسِ ما دامَ الحَيَاةُ بهمْ والسَّعْدُ - لا شكَّ - تَارَاتٌ وهَبَّاتُ[١]
وأَفْضَلُ النَّاسِ مَا بَيْنَ الوَرَى رَجُلٌ تُقْضَى عَلَى يَدِه للنَّاسِ حَاجَاتُ
لا تَمْنَعَنَّ يَدَ المَعْرُوفِ عَنْ أَحَدٍ مَادُمْتَ مُقْتَدِراً ، فَالسَّعْدُ تَارَاتُ
وَاشْكُرْ فَضَائِلَ صُنْعِ اللهِ إذْ جُعِلَتْ إلَيْكَ ، لا لَكَ عِنْدَ النَّاسِ حَاجَاتُ
قَدْ مَاتَ قَوْمٌ، مَا مَاتَتْ مَكَارِمُهُمْ وعاشَ قَوْمٌ وهُمْ في النَّاسِ أَمْوَاتُ»[٢].

وإنَّ أَجْرَ اصطناعِ المعروفِ لعظيمٌ ، فهو سبيلُ النَّجاة مِنْ كُرَبِ يوم القيامة، وسببٌ لستْرِ الله لصاحب المعروف في الدنيا والآخرة لقول رسول الله -ﷺ-:

« **مَنْ نَفَّسَ عَنْ مُؤْمنٍ كُرْبَةً من كُرَبِ الدُّنيا، نَفَّسَ اللهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ يَوْمِ القيامة ، وَمَنْ يَسَّرَ عَلَى مُعْسِرٍ، يَسَّرَ اللهُ عَلَيْه في الدُّنْيَا والآخرة ، ومَنْ سَتَرَ مُسْلماً ، سَتَرَهُ اللهُ في الدُّنيا والآخرةِ ، واللهُ في عَوْنِ العَبْدِ ما كان العَبْدُ في عَوْنِ أخيْه** »[٣].

« إنِّي - وَإنْ كُنْتُ امْرَأً مُتَبَاعِداً عَنْ صَاحِبٍ في أَرْضِه وَسَمَائِه
لَمُفِيْدُهُ نَصْرِي ، وكَاشِفُ كَرْبِه ومُجِيْبُ دَعْوَته ، وصَوْت نِدَائه
وإذَا ارْتَدَى ثَوْباً جَمِيلاً ، لم أَقُلْ: يَا لَيْتَ أَنَّ عَلَيَّ فَضْلَ كِسَائِه ».

والمعروف قد يكون عندنا هيِّناً ، لكنَّهُ عند الله عظيمٌ ، فما أجملَ أنْ نبذُلَهُ ابتغاءَ وَجْه الله ، يُضاعفُ اللهُ لنا الأجرَ ، ورُبَّ عملٍ قليلٍ تُكثِّرُهُ النيَّةُ ، قال رسول الله -ﷺ- : « **لا تَحْقِرَنَّ مِنَ المعروفِ شَيْئاً ، ولَوْ أَن تَلْقَى أَخَاكَ بوَجْهٍ طَلْقٍ** »[٤].

---

(١) هَبَات: جمع هبَة، وهي الساعة.
(٢) « ديوان الشافعي » (ص ٤٢).
(٣) رواه مسلمٌ في الذِّكر والدُّعاء (٢٦٩٩) عن أبي هريرة.
(٤) رواه مسلم في البرِّ والصِّلة (٢٦٢٦) عن أبي ذرٍّ.

وقال رسول الله -ﷺ- : « **نَزَعَ رَجُلٌ -لمْ يَعملْ خيراً قطُّ- غُصْنَ شَوْكٍ عَنِ الطَّريق ، إمَّا كان في شَجَرةٍ فقطَعَهُ فألْقاهُ ، وإمَّا كان موضوعاً فأَمَاطَهُ، فَشَكَرَ اللهُ لَهُ بها ، فأَدْخلَهُ الجَنَّةَ** »[١].

« لا تَحْقِرَنَّ صَنِيْعَ الخَيْرِ تَفْعَلُهُ   وَلاَ صَغِيْرَ فَعَالِ[٢] الشَّرِّ مِنْ صِغَرِهْ
فلو رأيتَ الذي اسْتَصْغَرْتَ مِنْ حَسَنٍ   عندَ الثَّوابِ أَطَلْتَ العَجَبَ مِنْ كِبَرِهْ»[٣].

(١) رواه أبو داود في الأدب (٥٢٤٥) ، وابن حِبَّانَ في « الصَّحيح » عن أبي هريرة ، وحسَّنه الألبانيُّ في « صحيح الجامع » (٦٧٥٥).
(٢) **الفَعَال - بالفتح -** : مَصْدَر فَعَلَ كالذَّهَاب.
(٣) « روضة العقلاء » (ص٢٥٢).

شكر المحسن

جُبِلَت القلوبُ على حُبِّ الشُّكر ، والثَّناء الحَسَن ، كما جُبِلَتْ على حُبِّ مَنْ أحسن إليها، ولا أحد يستغني عن الشكر ، كما قيل :

« فَلَوْ كَانَ يَسْتَغْنِي عَنِ الشُّكْرِ مَاجِدٌ ... لِعِزَّةِ مُلْكٍ ، أَوْ عُلُوِّ مَكَانِ

لَمَا أَمَرَ اللهُ العِبَادَ بِشُكْرِهِ ... فقال: اشْكُرُوني أيُّها الثَّقَلاَنِ[1] »[2].

ولا يكون المرءُ شاكراً لله ، حتى يكونَ شاكراً للناس ، كما جاء في الحديث: « **لاَ يَشْكُرُ اللهَ مَنْ لاَ يَشْكُرُ النَّاسَ** »[3]. وفي رواية أخرى: « **إنَّ أَشْكَرَ النَّاسِ لله أَشْكَرُهُمْ للنَّاسِ** »[4] .

قال الخطَّابيُّ -رحمه الله- في شرح حديث: « لا يشكرُ اللهَ مَنْ لا يَشْكُرُ النَّاسَ » : « هذا الكلام يتأوَّل على وجهين :

أحدهما – أنَّ مَنْ كان طَبْعُهُ وعادتُهُ كُفْرَانَ نعمة النَّاسِ ، وتَرْكَ الشُّكْرِ لمعروفهم ، كان من عادته كُفْرَانُ نعمة الله ، وتَرْكُ الشُّكْرِ له – سبحانه –.

والوجه الآخر – أنَّ الله – سبحانه وتعالى – لا يقبل شُكْرَ العبد على إحسانه إليه، إذا كان العبد لا يشكرُ إحسانَ النَّاسِ ، وَيَكْفُرُ معروفَهُم لاتِّصَالِ أَحَدِ الأمرين بالآخر» [5].

---

(١) **الثَّقلان** : الجنُّ والإنْس .

(٢) « روضة العقلاء» (ص٢٦٣) .

(٣) رواه أبو داود في الأدب (٤٨١١) عن أبي هريرة ، وصحَّحه الألبانيُّ في « صحيح أبي داود » (٤٠٢٦) ، وفي « صحيح الجامع » (٧٧١٩) .

(٤) « مسند أحمد » (٥/٢١٢) .

(٥) « معالم السنن » للخطَّابيِّ (٥/ ٥٧) .

قال الشاعرُ :

«إذا المَرْءُ لَمْ يَشْكُرْ قليــلاً أَصَــابَهُ فَلَيْسَ لهُ عِنْدَ الكثــيــر شُكُورُ
ومَــنْ يَشْكُرِ المخلوقَ يَشْكُرْ لِربِّهِ ومَنْ يكْفُرِ المَخْلُوقَ فهُوَ كَفُورُ» [١].

وقال آخرُ :

«حَافِظْ عَلَى الشُّكْرِ؛ كَيْ تَسْتَجْزِلَ القَسَمَا مَنْ ضَيَّعَ الشُّكْرَ لَمْ يَسْتَكْمِلِ النِّعَمَا
الشُّكْرُ للهِ كَنْزٌ لا نَفَــــادَ لَهُ مَنْ يَلْزَمِ الشُّكْرَ لَمْ يكسبْ بِهِ نَدَمَا» [٢].

والدعاء والثناء من الشكر للناس، فعنْ أُسامةَ بن زيد - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله - ﷺ -: « **مَنْ صُنِعَ إِلَيْهِ مَعْرُوفٌ ، فقالَ لِفَاعلِه : جزاكَ اللهُ خيراً ؛ فَقَدْ أَبْلَــغَ في الثَّنَاء** » [٣].

وحين اقترض رسول الله - ﷺ - من عبد الله بن أبي ربيعةَ المَخْزُوميِّ قَبْلَ حُنَيْنٍ، ردَّ إليه القَرْضَ بعد الغزوة، وقال له : « **بَارَكَ اللهُ لَكَ في أَهْلِكَ وَمَالِكَ، إنّما جزاءُ السَّلَف الوفاءُ والحَمْدُ** » [٤].

«ومَنْ يُسْدِ مَعْرُوفاً إليك، فَكُنْ لَهُ شَكُوراً يَكُنْ مَعْرُوفُهُ غَيْرَ ضَائِعِ
ولا تَبْخَلَنْ بالشُّكْرِ والقَرْضِ فَاجْزِهِ تَكُنْ خَيْرَ مَصْنُوعٍ إليْهِ وصَانِعِ» [٥].

---

(١) « روضة العقلاء » (ص٢٦٣) .
(٢) المرجع السابق (ص٢٦٣) .
(٣) رواه التِّرمذيُّ في البرِّ والصِّلة (٢٠٣٥) ، انظر « صحيح التِّرمذيّ» (٢٠٠/٢) ، وصحَّحه ابْنُ حِبَّانَ في « صحيحه » (٢٠٧١) ، والألبانيُّ في « صحيح الجامع » (٦٣٦٨) .
(٤) رواه النَّسائيُّ في البُيُوع (٤٦٨٧) ، وابن ماجة في الصَّدقات (٢٤٢٤) ، وأحمد في « المسند» (٣٦/٤) ، وصحَّحه الألبانيُّ في « صحيح الجامع » (٢٣٥٣) .
(٥) « روضة العقلاء » (ص٢٦٤) .

حفظ الجميل

جُبِلَ النَّاسُ على حُبِّ مَنْ يَحْفَظُ الجَمِيلَ وتَقْدِيرِه ، وكأنَّهُ صاحبُ الجميلِ عليهم لقلَّةِ مَنْ يفعل ذلكَ .

وهلْ جزاءُ الجميلِ إلاَّ الجميلُ، كما قال الله - سبحانه وتعالى -: ﴿ **هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إِلاَّ الإِحْسَانُ** ﴾ [الرَّحمن: ٦٠].

وعن ابْنِ عُمَرَ - رضي الله عنهما - قال: قال رسول الله - ﷺ -: « **ومَنْ آتى إِلَيْكُمْ مَعْرُوْفاً فَكَافِئُوْهُ، فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَادْعُوا لَهُ، حَتَّى تَعْلَمُوا أَنْ قَدْ كَافَأْتُمُوْهُ** »[١].

وكان رسول الله - ﷺ - يحفظُ الجميلَ ، ويُجازي بأحسنَ منهُ ، فحين اشتدَّ أذى المُشْرِكينَ لرسولِ الله - ﷺ - وهو في مكَّةَ ، نزلَ في جِوَارِ المُطْعِمِ بْنِ عَدِيٍّ ، فحملَ المُطْعِمُ بن عَدِيٍّ سلاحَهُ للدِّفاعِ عن رسولِ الله - ﷺ -، مع أنَّ المُطْعِمَ بْنَ عَدِيٍّ كان مُشْرِكاً ، فلمَّا جاءتْ غَزْوَةُ بَدْرٍ ، قال النَّبِيُّ - ﷺ - في أُسَارَى بَدْرٍ: « **لو كانَ المُطْعِمُ بْنُ عَدِيٍّ حَيَّاً ، ثُمَّ كَلَّمَنِي في هَؤُلاءِ النَّتْنَى**[٢] ، **لَتَرَكْتُهُمْ لَهُ** »[٣].

«أَلاَ يَا مُحِبَّ المُصْطَفَى، زِدْ صَبَابَةً[٤] وضَمِّخْ[٥] لسَانَ الذِّكْرِ مِنْكَ بِطِيْبِهِ
وَلا تَعْبَأَنَّ بِالمُبْطِلِيْنَ ؛ فَإِنَّمَا عَلامَةُ حُبِّ الله حُبُّ حَبِيْبِهِ».

(١) أخرجه أبو داود في الزَّكاة (١٦٧٢) ، والنَّسائيُّ -واللَّفظُ لَهُ- في الزَّكاة (٢٥٦٨) ، وصحَّحه ابْنُ حبَّانَ في «صحيحه» (٢٠٧١) ، والألبانيُّ في «صحيح الجامع» (٦٠٢١) ، وفي «الصَّحيحة» (٢٥٤).
(٢) **يعني بالنَّتْنَى** : الأُسَارَى.
(٣) رواه البخاريُّ في فرض الخُمُس (٣١٣٩) ، وفي المغازي (٤٠٢٤).
(٤) **الصَّبَابَةُ والتَّصابي**: شدَّة العشق والولَع ، وحرارة الشَّوق، ورقَّةُ الهوَى .
(٥) **ضَمَّخَهُ بالطِّيب** : لطَّخَهُ بهِ، حتَّى كادَ يقطر .

وحَفظَ الجميلَ لخديجةَ في أُخْتِها هَالَةَ ، فحينَ استأذنت هَالةُ على رسولِ الله -ﷺ- ، فعرف استئذانَ خديجةَ [١] ، فارتاحَ لذلك [٢] ، فقال : « **اللَّهُمَّ، هَالَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ** » [٣].

وكان رسولُ اللهِ -ﷺ- إذا ذَبحَ الشَّاةَ يقول : « **أَرْسِلُوا بها إلى أَصْدِقَاءِ خديجةَ** » [٤].

«تَمُرُّ الصَّبَا[٥] صَفْحاً بِسُكَّان ذي الغضَا[٦] ويَصْدَعُ قلبي أَنْ يَهُبَّ هُبُوبُهَا
قَرِيبَةُ عَهْدٍ بالحبيبِ، و إنَّما هَوَى كُلِّ نَفْسٍ حَيْثُ حَلَّ حَبِيبُهَا » .

وحَفظَ الجميلَ للأنصار، وكافأهم عليه ، وأوصى بهم خيرَ وصيَّةٍ ، فعن أنس بن مالكٍ - ﷺ- قال: دعا النَّبيُّ -ﷺ- الأنصارَ إلى أن يُقْطِعَ لهمُ البَحْرَيْنِ، فقالوا: « لا، إلاَّ أن تُقْطِعَ لإخواننا من المهاجرينَ مِثْلَهَا» . قال: «**إمَّا لا، فاصبروا حتى تَلْقَوْني ؛ فَإِنَّهُ سَيُصِيبُكُمْ بَعْدي أَثَرَةٌ** [٧] » [٨].

« قَوْمٌ إذا هيجُوا كانوا ضَرَاغِمَةً [٩] وإنْ هُمُ قَسَمُوا أَرْضَوْكَ بالقَسَمِ
كأنَّما الشَّرْعُ جُزْءٌ مِنْ نُفُوسِهِم فإنْ هُمُ وَعَدُوا اسْتَغْنَوْا عَنِ القَسَمِ» .

---

(١) **استئذان خديجة** : أي صفة استئذانها لشبه صوتها بصوت أختها ، فتذكَّر خديجةَ بذلك .
(٢) **فارتاح لذلك** : أي اهتزَّ لذلك سروراً .
(٣) رواه البخاريُّ في مناقب الأنصار (٣٨٢١) ، ومسلمٌ في فضائل الصَّحابة (٢٤٣٧) .
(٤) رواه البخاريُّ في مناقب الأنصار (٣٨١٦) و(٣٨١٨) ، ومسلم - واللَّفظ له - في فضائل الصَّحابة (٢٤٣٥) .
(٥) **الصَّبا**: ريحٌ طيِّبةٌ مَهَبُّها مِن الشَّرْق.
(٦) **الغضا**: جمع غضاة، ضَربٌ مِن الشَّجَر ، خَشَبُهُ فيه صَلابَةٌ ؛ لذا يبقي جَمْرُهُ طويلاً .
(٧) **الأَثَرَة** : الاستئثار بالشَّيءِ المشترك، فَهِي ضِدُّ الإيثار، والمعنى : سيأتي من يستأثر بالدُّنيا عنكم مع حقِّكم فيها، فاصبروا .
(٨) رواه البخاريُّ في مناقب الأنصار (٣٧٩٤) .
(٩) **ضراغمة** : أُسوداً ، جمع ضِرغام .

وعن أنسٍ – أيضاً – قال : صَعدَ رسولُ الله –ﷺ– المنْبَرَ – ولم يَصْعَدْهُ بعدَ ذلك اليومِ – ، فَحَمدَ اللهَ ، وأَثْنَى عليه ، ثُمَّ قال : « **أُوْصيْكُمْ بالأنصارِ ؛ فَإنَّهُمْ كَرشي** [١] **وعَيْبَتي** [٢] ، **وقَدْ قَضَوا الذي عليهم ، وبَقيَ الذي لهم ؛ فاقْبَلُوْا منْ مُحْسنهمْ ، وتَجاوَزُوْا عَنْ مُسيئهمْ** » [٣].

أخي، هل رأيتَ مثل تلك الأخلاق في بهائها ومضائها ؟!.

أخي ، هل رأيت مثل تلك الروائع الرائعات ؟! .

أخي ، هل أشجاك ما أشجاني ؟! .

« وَلَوْ قَبْلَ مَبْكَاهَا بَكَيْتُ صَبَابَةً لَكُنْتُ شَفَيْتُ النَّفْسَ قَبْلَ التَّنَدُّمِ
ولكنْ بَكَتْ قَبْلي ، فَهَيَّجَ لِيَ البُكَا بُكاهَا ، فَكَانَ الْفَضْلُ لِلْمُتَقَدِّمِ» .

والجميلُ لا يقتصر على مَنْ صنع لك معروفاً ، فالله – سبحانه وتعالى – الذي خلقنا ، وهَدَانا ، وأَنْعَمَ علينا بنعمٍ عظيمةٍ ، لا تُعَدُّ ولا تُحْصَى – لَهُ علينا جميلٌ، ما أَعْظَمَهُ لو عقلنا !.

« مَهْمَا كَتَبْنَا في عُلاَكَ قَصَائداً بالدَّمْعِ أو خُطَّتْ بدَمِ الأَجْفَانِ
فَلأَنْتَ أعظَمُ مِنْ مَديحي كُلِّه وأَجَلُّ ممَّا دارَ في الحُسْبَانِ ! » .

ونبيُّنا –ﷺ– له علينا جميلٌ بعدَ الله –سبحانه وتعالى–؛ فعن طريقه عَرفنا اللهَ ربَّنا، وعرفنا أنَّ ربَّنا لا شريكَ له في أُلوهيَّتهِ ، ولا في رُبُوبيَّتهِ ، وأنه ليس كَمثْله شيْءٌ ، وهو السميعُ البصير .

---

(١) كَرِشي : أي بطَانَتي.
(٢) عَيْبَتي : أي خَاصَّتي.
(٣) رواه البخاريُّ – واللفظ له – في مناقب الأنصار (٣٧٩٩) ، ومسلمٌ في فضائل الصَّحابة (٢٥١٠).

«إذا نَحْنُ أَدْلَجْنَا (١) وأَنْتَ أَمَامَنَا كَفَى بالمَطَايَا (٢) طِيْبُ ذِكْرَاكَ حَادِيا»(٣).

ووالدانا لهما - أيضاً - علينا جميلٌ ؛ فهما السَّببُ - بعد الله - في وجودنا على هذه الحياة .

« تَخَيَّرْتُهُم رَشَداً لأمري، إنَّهُمْ -عَلَى كُلِّ حَالٍ - خيرةُ الخَيْرَاتِ
فَيَا رَبِّ، زِدْني في يَقِيني بَصِيرَةً وزِدْ حُبَّهُمْ -يا ربِّ- في حَسَنَاتي!» .

وسلفنا ، ومشايخنا ، ومَن استفدنا منهم - ولو حديثاً واحداً - علينا حِفْظُ جَمِيْلِهِمْ ، فجميلهم عِنْدَ كِرامِ النَّاس محفوظٌ .

«هُمُ النُّجُومُ ، مَسَائِلُهَا إذا التَبَسَتْ عَلَيْكَ عِنْدَ السُّرَى(٤) -ياصَاحِبِيَ- السُّبُلُ
اتَّبعْ طَرِيْقَتَهُمْ ، اعْرِفْ حَقِيْقَتَهُمْ اقْرأْ وَثِيْقَتَهم بالحُبِّ يا رجُلُ» .

أخي ، الجميل جميلٌ ، فازرعْ جميلاً تَجِدْ غِبَّهُ (٥) مهما طال الزَّمنُ ، فلنْ يضيعَ جميلٌ بين الله والنَّاسِ .

« ازْرَعْ جَمِيْلاً ، ولو في غَيْرِ مَوْضِعه فَلاَ يَضِيْعُ جَمِيلٌ أينَمَا زُرِعَا
إنَّ الجَمِيلَ ولوْ طَالَ الزَّمَانُ به فَلَيْسَ يَحْصُدُهُ إلاَّ الَّذي زَرَعَا» .

واذا صنعتَ لأحدٍ جميلاً ، فحاول أن تَنْسَى ما يصدر منك حتَّى تسلم من المَنِّ (٦)، والتَّرفُّع على النَّاسِ ؛ فالمَنُّ يَهْدِمُ الصَّنِيْعَةَ (٧)، ويُكَدِّرُ الجميل ، ولا تنتظرْ لجميلك جزاءً ولا شُكُوراً من غير الله - سبحانه وتعالى - .

---

(١) **أدلجنا** : سرْنَا من أوَّل اللَّيل .
(٢) **المَطَايَا** : جَمع مَطِيَّة : وهي الدَّابَّة مطلقاً ، سُمِّيت بذلك ؛ لأنهاَ تَمْطُو - أي تُسْرِعُ - في سَيْرِها ، أو لأنَّكَ تركبُ مَطَاهَا - أي ظَهْرَهَا - .
(٣) **الحادي**: مَنْ يسوقُ الإبل، ويغنِّي لها؛ ليحثُّها على السَّيْر، يُقال : حَدَا يَحْدُو حَدْوًا وحُداءً .
(٤) **السُّرَى**: السَّير ليلاً، يُقال : سرى يسري سرىً .
(٥) **غِبُّ الشَّيء** : عاقبته .
(٦) **المَنُّ** : تعديد النِّعَم على المُنْفَق عليه، وطلب مُقابلتها منه .
(٧) **الصَّنيعة** : النِّعمةَ والإحسَان، جمعها صنائع .

قال ابنُ المُعْتَزّ العبّاسيُّ :

«لَيْسَ الكَرِيمُ الَّذي يُعْطي عَطِيَّتَهُ عَنِ الثَّنَاءِ، وإنْ أَغْلَى به الثَّمَنَا
بَلِ الكَرِيمُ الذي يُعْطي عَطِيَّتَهُ لِغَيْرِ شَيْءٍ سِوَى اسْتِحْسَانه الحَسَنَا
لا يَسْتَثِيبُ[1] بِبَذْلِ العُرْفِ[2] مَحْمَدَةً[3] ولا يَمُنُّ إذا ما قَلَّدَ المِنَنَا»[4]

واعلمْ أنَّ اللَّئيمَ أوَّلُ مَنْ يُضيعُ الجميلَ ، بلْ متى رأى منك فَضْلَ مَنٌ كان أوَّلَ مَنْ يُنَاصِبُكَ العَدَاءَ ، بل قد يناصبُكَ العَدَاء ولو لم تَمُنَّ عليه ، فلا تترك الجميلَ ، ولكن دَارِه ؛ لتسلمَ منه .

قال الإمام ابنُ حَزْمٍ -رحمه الله- : « وابْذُلْ فَضْلَ مَالكَ لكُلِّ مَنْ سألك ، أو لم يَسْألْكَ ، ولكُلِّ مَنِ احتاجَ إليك ، وأمكنك نَفْعُهُ ، وإنْ لم يعتمدْكَ بالرَّغْبة ، ولا تُشْعِرْ نفسَكَ انتظارَ مُقَارضةٍ على ذلك من غير ربِّكَ -عزَّ وجلَّ- ، ولا تَبَنِي إلا على أنَّ مَنْ أحسنتَ إليه **أوَّلُ** مُضرٍّ بكَ ، أو ساعٍ عليكَ ، فإنَّ ذوي التراكيب الخبيثة يُبْغِضُونَ - لشدَّة الحَسَدِ - كُلَّ مَنْ أَحْسَنَ إليهم ؛ إذا رأَوْه في أعلى من أحوالِهِمْ »[5].

قلتُ : ما أجملها من حكمة !؛ فاللَّئيمُ هو من ذوي التراكيب الخبيثة ، وهو الذي يُضيعُ الجميلَ ، وعليه يُحْمَلُ المثل السائر : « **اتَّقِ شَرَّ مَنْ أَحْسَنْتَ إليه**» .

وأمَّا الكَرِيمُ فَهَيْهَاتَ[6] أنْ يُضيعَ جميلاً .

(١) **يَسْتَثِيبُ** : يسألُ أنْ يُثابَ .
(٢) **العُرْف** : المعروف .
(٣) **المَحْمَدَة** : الحمْد .
(٤) **قلَّد المنن** : أولاها وأسْداها، والمِنَنُ : جمعُ مِنَّة، وهي النِّعْمة .
(٥) « الأخلاق والسِّيَر» لابن حزم (ص١١٧) .
(٦) **هَيْهَاتَ**: اسم فعل مَاضٍ بمعنى: بَعُدَ.

« فهيهات هيهات العقيق (١) ومن به ... وهيهات خلٌّ (٢) بالعقيق نواصله » .

وما أجمل ما قاله شاعرُ الدُّنيا ، وشاغل الناس :

« وما قتلَ الأحرار كالعفو عنهم ... ومن لك بالحرِّ الَّذي يحفظُ اليدا؟! (٣)
إذا أنتَ أكرمتَ الكريمَ ملكتَه ... وإذا أنت أكرمتَ اللَّئيمَ تمرَّدا »

وقال آخرُ:

« ولا تصطنعْ (٤) إلاَّ الكرامَ ؛ فإنَّهم ... يُجازُونَ بالنَّعماء من كانَ مُنعما
ومَن يتَّخذْ عندَ اللِّئامِ صنيعةً ... تجِدْه على آثارها مُتندِّما » .

---

(١) **العقيق** : اسم مكان.
(٢) **خلٌّ** : صديق.
(٣) **اليد** : النِّعمة والإحسان .
(٤) **اصطنع الكرام** : أحْسِنْ إليهم.

الوَفَاءُ

الوَفَاءُ من شِيَمِ النُّفوسِ الكريمةِ ، والوفيُّ قريبٌ من الله ، قريبٌ من الناس، وقلَّ مَنْ يتَّصف بهذا الخُلُقِ العظيمِ ، كما قيل :

« سَـــأَلْتُ النَّاسَ عَنْ خِلٍّ وَفِيٍّ   فَـقَـالُوا : مـا إِلى هَذا سَـبِيْلُ !
تَمَسَّكْ -إِنْ ظَفِـرْتَ- بِذَيْلِ حُـرٍّ   فَـإِنَّ الحُـرَّ في الدُّنيـا قَلِيلُ » .

والله - سبحانه وتعالى - أَمر بالوفاء بالعَهْد ، وإنجاز الوَعْد ، فقال - عزَّ من قائلٍ -: ﴿ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً ﴾ [الإسراء : ٣٤].

وقال -سبحانه وتعالى-: ﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ ﴾.

[النحل : ٩١].

وقال - سبحانه وتعالى-: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ ﴾ .

[المائدة: ١].

وفي حديث أبي هُرَيْرَةَ - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: « **آيَةُ المُنَافِقِ[١] ثلاثٌ: إذا حَدَّثَ كَذَبَ، وإذا وَعَدَ أَخْلَفَ، وإذا اؤْتُمِنَ خَانَ**»[٢].

وعن عبد الله بْنِ عَمْرِو بْنِ العَاصِ -رضي الله عنهما- أنَّ رسولَ الله -صلى الله عليه وسلم- قال: «**أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فيه كان مُنافِقًا خَالِصًا ، وَمَنْ كانتْ فيه خَصْلَةٌ منْهُنَّ كَانَتْ فيْهِ خَصْلَةٌ مِنَ النِّفاقِ حتَّى يَدَعَهَا : إذا اؤْتُمِنَ خَانَ، وَإذا حَدَّثَ كَذَبَ ، وإذا**

(١) آيةُ المنافق : عَلامَتُهُ .
(٢) رواه البخاريُّ في الإيمان (٣٣) ، ومسلمٌ في الإيمان (٥٩).

عَاهَدَ غدَرَ، وإذا خَاصَمَ فجَرَ »[١].

وكما أنَّ الغَدْرَ والخيانةَ مِنْ صفات المنافقين ، فإنَّ الوفاءَ صفَةٌ مميِّزة للأنبياء ، فقد جاءَ في حوار أبي سُفْيانَ مع هِرَقْلَ حيثُ قال هِرَقْلُ : « سَأَلْتُكَ: ماذا كان يأمُرُكُمْ ؟، فزعَمْتَ أنّه يأمُرُ بالصَّلاة ، والصِّدْق ، والعفَاف، والوَفَاء بالعَهْد ، وأداء الأمَانة . قال: وهذه صفةُ نبيٍّ »[٢].

وفي مَوْضعٍ آخرَ قال : « وسألْتُكَ : هَلْ يغْدرُ ؟، فزعَمْتَ أنْ لاَ ، وكذلك الرُّسُلُ لاَ يَغْدرُونَ »[٣].

قال الشَّاعرُ في وصف وفاء الرسول -ﷺ- :

« يا صَفْوَةَ الرُّسُلِ الكرامِ ، ومَنْ به ... هُديَ الأَنَامُ[٤] مَحَجَّةً بَيْضَاءَ

صلَّى عليك اللهُ ما خَفَقَ الحَشَا[٥] ... حُبّاً ، وأخْلَصت النُّفُوسُ وَفَاء».

وقال المُتَنَبِّيُّ - وأحْسَنَ - يَمْدَحُ أبا المِسْك كافور الإخْشيديَّ :

« إنَّ في ثَوْبكَ الَّذي المَجْدُ فيه ... لَضيَاءً يُزْري[٦] بكُلِّ ضيَاء

كَرَمٌ في شَجَاعَةٍ، وذَكَاءٌ ... في بَهَاءٍ ، وقُدْرَةٌ في وَفَاء!».

---

(١) رواه البخاريُّ في الإيمان (٣٤) ومسلم في الإيمان (٥٨) .

(٢) رواه البخاريُّ في الشهادات (٢٦٨١) ، وفي الجهاد (٢٩٤١) .

(٣) رواه البخاريُّ في الجهاد (٢٩٤١) ، وفي التفسير (٤٥٥٣) ، ومسلمٌ في الجهاد (١٧٧٣) .

(٤) **الأنام** : الخَلْق والنَّاس .

(٥) **الحشا** : ما انضمّتْ عليه الضُّلُوعُ ، جمعه أحْشاء .

(٦) **أزرى به** : استهان به .

الخاتمة

لقد كتبتُ هذه الرسالة ، وأنا أعلمُ أنَّ هناك مَنْ يفُوقُني عِلْماً وفَضْلاً، لكني عايشتُ كثيراً من عقباتِ الحياة ، والاختلاط بالنَّاسِ ، والقراءة في بعضِ ما كُتِبَ في هذه المعاني ، وتسجيل بعض الشوارد من أزمنةٍ مختلفةٍ.

« أَسِيْرُ خَلْفَ رِكَابِ[1] النُّجْبِ[2] ذا عَرَجٍ   مُؤَمِّلاً كَشْفَ ما لاقَيْتُ مِنْ عِوَجِ
فَإِنْ لحِقْتُ بِهِمْ مِنْ بَعْدِ ما سَبَقُوا   فَكَمْ لِرَبِّ الوَرَى في ذاك مِنْ فَرَجِ!
وإنْ بقِيْتُ بِظَهْرِ الأَرْضِ مُنْقَطِعاً   فما عَلَى عرجٍ في ذاك مِنْ حَرَجِ».

ورَجَوْتُ أَنْ يستفيدَ منها إخواني المسلمون الذين تَرْبِطُني بهم رابطةُ الإسلامِ أعظم الرَّوابط على الإطلاق .

«إنْ كيدَ مطرف الإخاءِ، فَإِنَّنا   نَغْدُو ونَسْري في إخاءٍ تالِدِ
أو يَخْتَلِفْ ماءُ الغَمَامِ[3] فَماؤُنا   عَذْبٌ تَحَدَّرَ مِنْ غَمامٍ واحِدِ
أو يَفْتَرِقْ نَسَبٌ يُؤَلِّفْ بَيْنَنا   دِيْنٌ أَقَمْنَاهُ مَقامَ الوالِدِ».

فيا أخي في الله ، إن وَجَدْتَ خيراً فحَمْداً لله ، واعلمْ أنَّ أقلَّ القليل من الجميل في حقِّ كاتب هذه السطور « حفظه اللهُ بطاعته ! » ، أو « رحمه الله، وغفر له ذنبه ! » . وإن وجدت غير ذلك « فالدِّينُ النَّصيحةُ » ، وعساي ألاَّ أكونَ قدْ أثقلتُ عليك ، فما حديثي معك إلا كما قيل :

---

(١) **الرِّكَاب** : الإبل التي يُسارُ عليها .
(٢) **النُّجْب** : الكرام، جمع نجيب .
(٣) **الغمَام** : السُّحب، جمع غَمامة .

« حَـديْثُ الرُّوْحِ للأَرْوَاحِ يَسْـري وتُدْرِكُــهُ القُلُوْبُ بلاَ عَنَاء

هَتَــفت به، فَطَارَ بلاَ جَنَاحٍ وَشَقَّ أَنِيْنُهُ صَـدْرَ الفَضَـاء

ومَعْــدِنُه تُرَابِيٌّ ، ولَكِنْ سَـرَتْ في لَفْظِهِ لُغَـةُ السَّمَـاءِ!» .

مُحِبُّك

أبو عبد الله

فيصل بن عبده قائد الحاشدي

الفهرس

العصر للطباعة
فاكس: ٢٤٣٣٢٤٩
محمول: ٠١٠١٩٠٠٠٣٨٠